محمد عوض ابراهيم بك

قصص جوب الأقطار وكشفها

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

محمد عوض ابراهيم بك

قصص جوب الأقطار وكشفها



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الفصل الأول

الدنيا القديمة

عندما نتأمل فى خريطة للدنيا القديمة (شكل ١) تدهشنا غرابة عدم دقتها . ذلك لأنه مثلا بدلا من اظهار تفاصيل التضاريس الطبيعية للحبشة نجد صورة لبرسترجون (Prester John) ذلك الملك الخرافى المسيحى لهذا الأقليم من افريقية ، كما أن الخريطة الحقيقية التى اقتضب منها هذا التخطيط تحوى أسماء كثيرة حول شواطىء الاقاليم المبينة فى حين أن هذه



(شكل ١)

الأسماء تندر فى سائر الجهات الأخرى وذلك لأنها خريطة بحرية من جهة ، ومن جهة أخرى فإن المعلومات التى جاءت بها قليلة . وقد تطورت سائر

الخرائط فيما بعد فأصبحت معلوماتها أكثر ضبطاً لأنها تزودت بما كسبه الناس من معارف جديدة . وقد أصبحنا الآن وليست هناك أقاليم لا تعرف تضاريسها العامة على الأقل . ومع أنه ينقصنا الكثير من التفاصيل عنها ، فان أكثر المسائل الخاصة برسم العالم قد حُلت واتفق عليها .

وإنه لمن المستحيل أن نقول متى أخذ الإنسان يعرف شيئاً عن أجزاء الدنيا التي لا تجاوره غير أنه ما من شك في أن العبرانيين القدماء اهتموا بهذه الأمور وكانت لهم أراء عن شكل الأرض وما شابهها من هذه المسائل . ولقد تصوروا الأرض جسما مستويا ومركزا للكون . وكانوا يظنون أن المحيط مجرى من الماء يسيل حول الدنيا . ويجب أن نذكر أنه في تلك الأيام عندما كانت كل أمة تقوم بحاجاتها كانت التجارة قليلة ، وقل لذلك السفر الذي كان يساعدهم على تعديل أرائهم التي تظهر الآن لنا غريبة .

الكلدانيون والمصريون : ويخيل إلينا أن موطن الأمم التجارية الأولى كان في الأرض الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط والجنوب الغربي من آسيا . وكان الاقليم الخصب بين نهري دجله والفرات مقر الكلدانيين ، كما أن أمة أخرى عظيمة هي الأمة المصرية كانت تقطن دلتا النيل . وكانت تفصل هاتين الأمتين صحراء عظيمة منعتهما من الاتصال بعضهما ببعض ، على أنه على كر الزمن اتصل هذان القطران كما يستدل على ذلك من التوراة إذ يذكر هذا الكتاب رحلة سيدنا ابراهيم

وأسرته من بلاد الكلدانيين إلى مصر وعودته مع جماعة عظيمة إلى كنعان وكذلك قصة سيدنا يوسف مع إخوته وإلقائه فى غيابت الجب والتقاطه ببعض السيارة الذين كانوا يحملون التوابل والأفاويه إلى مصر.

الفينيقيون : وفضلا عن البحارة المصريين الذين كانوا يسيرون بسفنهم فى نهر النيل فان بعض الملاحين القدماء كانوا يرتادون البحر الأبيض المتوسط بين جزائر بحر إيجه · وجاء بعد هؤلاء ملاحو صور وصيدا ، وكانوا يعرفون بالفينيقيين وغصت بهم البحار . وكان يقطن هؤلاء على سواحل سوريا . وفى شرق هذا الاقليم وقفت صحراء مرتفعة عقبة كئودا فى سبيل المواصلات إلا بواسطة طرق تجارية محدودة . على أن البحر كان فى غرب هذه المنطقة وعليه اعتمد الفينيقيون فى إظهار كفاءتهم وقدرتهم على اقتحام الأخطار. ولقد احتكروا تجارة البحر الأبيض المتوسط زمنا ما وزادوا غناء من بيع الصبغة البنفسجية التى احتكرت انتاجها مملكتهم . ولقد سارت سفنهم من ثغرى المملكة العظيمين (صور وصيدا) شمالا إلى البحر الأسود وآسيا الصغرى ، وغربا إلى شواطىء بلاد اليونان وإيطاليا وبلاد الغال (فرنسا) وشمال افريقية ، وشرقا إلى خليج الفرس وجنوبا إلى زنجبار . ولا يخامرنا إلا بعض الشك فى أن هؤلاء القوم وصلوا إلى كرنوول Cornwell بانجلتره وجزائر سلى حيث اتجروا فى القصدير غير أنهم لم يحاولوا إقامة دعائم امبراطورية بيد أنهم استقروا فى بعض الجهات وكونوا ولايات مستقلة وأهم هذه

قرطاجنة التى أسست فى سنة ٧٧٠ قبل الميلاد على الشاطىء الشمالى من أفريقية بالقرب من مدينة تونس الحديثة ومن هذه المدينة قاموا بعدة سفرات على شواطىء افريقية متجهين نحو الغرب قاصدين «عمودى هرقل» وهما صخرتا جبل طارق وسبتة العظيمتان فى المدخل الغربى للبحر الأبيض المتوسط

اليونانيون : أما اليونانيون الذين كانوا يقطنون شرقى بحر إيجه وغربيه فاهتموا بالمسائل الخاصة بشكل الأرض وتضاريسها الطبيعية فى الجملة . ولم يجوبوا أقطاراً بعيدة مثل الفينيقيين بيد أنهم أسسوا مستعمرات فى كثير من الأقاليم الغربية . فكانت لهم مستعمرات على شواطىء آسيا الصغرى والبحر الأسود وعلى الشواطىء الشمالية لبحر إيجه . كما كانت لهم مستعمرات فى صقلية . وفى شواطىء إيطاليا . وأسسوا مرسيليا بالقرب من مصب نهر الرون Rhone وكانت كل هذه المستعمرات مستقلة ولو أنها كانت مرتبطة بعضها ببعض بوحدة الدين واللغة والاشتراك فى الحفلات الرياضية العظيمة التى كانت تقام فى أوليمبيا (الألعاب الأولمبية) وكانت هذه المستعمرات مراكز للتجارة ومنها سافر التجار للبحث عن السلع التجارية . وإحدى هذه الرحلات كانت مهمة إذ نشأ عنها اكتشاف الجزائر البريطانية . ذلك أنه فى القرن الرابع قبل الميلاد أرسل يونانيو مرسيليا عالما بالرياضيات مشهورا يدعى بيثيس Pytheus لارتياد البحار غربى عمودى هرقل رغبة فى اكتشاف أرض جديدة يمكن الاتجار معها فسار فى المحيط متجها صوب الشمال حذاء الشاطىء حتى خليج بسكاى ومن هناك سافر إلى بريطانيا حيث رست سفينته على شاطىء كنت Kent وفحص جزءاً عظيما من الشاطىء غير أنه

بالغ فى تقدير طوله ؛ ومن ثم سافر حتى مصب نهر الراين واستمر شمالا حتى بلغ أرضاً سماها ثول (Thule) وقد وصفها بأنها أقصى بلاد الدنيا شمالا ولكنه لم يحدد بالضبط موقعها ، ومنها عاد إلى مرسيليا مخترقا فرنسا .

ولقد أسس علماء اليونان فى هذه الأيام دعامة آرائهم على آراء الفينيقيين و انا لنجد أقدم وصف لشكل الأرض فى أدب اللغة اليونانية فى قصائد هوميرس (Homer) حيث ذكر فيها أن الأرض مستوية مستديرة يجرى حولها النهر العظيم المسمى أقيانوس وهذا يطابق آراء العبرانيين . وفى الأيام التى تلت تلك سافر كثير من السائحين اليونانيين مثل هردُوت (Herodotus) ولم يكن هذا سائحاً عظيما فحسب بل مؤرخاً أيضاً ؛ وكتب عما رآه فى مصر وهو الذى قال عنها إنها « هبة النيل » وزار أيضاً بلاد العرب و بلاد الفرس والشاطىء الشمالى الغربى للهند .

وغزا الاسكندر المقدونى كل آسيا الصغرى و بعض أجزاء أخرى من آسيا وافريقية وسار بجنوده . إلى الشمال الغربى من الهند سنة ٣٢٧ ق. م ، فانتعشت التجارة واتبعت طريق فتوحاته . ولم يهتم رجال مثل الاسكندر بتخطيط الأقاليم التى فتحها ، ولكن فى القرن الثالث قبل الميلاد ظهر علماء كثيرون اهتموا بالبحث الجغرافى : فيروى أنه فى سنة ٢٤٠ ق . م أكد عالم يونانى بأن الأرض كرية الشكل واخترع بالفعل طريقة لقياس محيطها ، ولم تكن النتيجة التى وصل إليها بعيدة عن الحقيقة . غير أن الخريطة التى رسمها كان بالطبع بها الكثير من الخطأ الغريب . فمثلا

رسم بحر قزوين كأنه متصل بالمحيط المتجمد الشمالي . ورسم سلسلة جبال عظيمة ممتدة بوسط آسيا من الغرب إلى الشرق .

الرومان: وعندما شيد الرومان امبراطوريتهم العظيمة حول البحر الأبيض المتوسط أضافوا معلومات كثيرة أخرى عن الدنيا . ولم يكن من بينهم الكاشفون الرومانيون ولكن التجارة أينعت فى أيامهم : فلقد جاءوا بالبضائع الكثيرة من بريطانيا وأسبانيا فى أقصى الحدود الغربية لامبراطوريتهم كما أنهم أحضروا من الهند وآسيا الصغرى فى الشرق السلع التى نعم بها الرومانيون الأثرياء . وكان من جراء هذا التبادل التجارى بين أقاليم منفصلة بعضها عن بعض بمسافات شاسعة أن اتسع أفق المعلومات الجغرافية . ذلك إلى أن الكثير من القوادا لرومانيين قد عنوا عناية عظيمة بما وقع تحت أبصارهم : فيوليوس قيصر الذى جاب أقاليم فرنسا وأسبانيا وألمانيا وبريطانيا كتب كتبا كثيرة عن مشاهداته ، ولم يصف بها أعمال جنوده فحسب بل وصف التضاريس الطبيعية للأقاليم التى غزاها . ومن الأمثلة الحسنة لهذا الوصف شرحه لشكل الجزائر البريطانية ومناخها وغلاتها وسكانها .

واشتهر فى القرنين الأول والثانى قبل الميلاد كثير من الباحثين الجغرافيين الرمانيين والروم ومن هؤلاء بطليموس الذى كان يعتقد بكرية الأرض ورسم خريطة للدنيا ظلت مستعملة عدة قرون على ما بها من الكثير من الاخطاء إذ أن العادة جرت فى هذه الأيام برسم الأرض التى

لم تكشف بعد على سبيل الظن والحدس: فمثلا رسم بطليموس المحيط الهندى بحرا عظيما داخليا ورسم جنوبيه قارة عظيمة تمتد من الجنوب الشرقى للصين حتى شاطىء أفريقية ، وهذه القارة وكذلك وسط أفريقية مبينة كأنها أقاليم صحراوية غير مأهوله لشدة حرارتها .

وقصارى القول أن المعلومات الجغرافية (عندما أخذت الدولة الرومانية فى الانهيار أى فى آخر القرن الرابع) عن الأقطار التى تحف الأبيض المتوسط كانت معروفة تمام المعرفة وخططت تخطيطا بقرب من الحقيقة على الخرائط وظهرت الدنيا المعلومة محددة شمالا بغابات وسط أوربا وجنوبا بصحارى شمال أفريقية وغربا بالمحيط الأطلسى وشرقا بهضاب وسط آسيا . هذا فضلا عن أنه قد عرف الكثير عن الشاطىء الشرقى لأسيا حتى الهند الصينية وشاطىء أفريقية الشرقى حتى زنجبار . ويحتمل أنه كان هناك بعض الألمام بخليج غانه . أما القارة الأمريكية واستراليا والجزء الشمالى الشرقى من أسيا وكذلك شمال أوربا وجنوب أفريقية فلم يعلم عنها شىء . والأقاليم التى كانت معروفة كانت المعلومات عنها كثيرة الخطأ . ولذلك اتجه الكشف فيما بعد جهتين أولاهما اضافة كثير من التفاصيل إلى الخرائط التى وضعت سواء من جهه اصلاحها أو من جهة زيادتها . وثانيتهما كشف الكثير من الأقطار التى لم يعلم عنها شىء بعد .

الفصل الثانى

العصور المظلمة والفيكنج (Vikings)

[سكان الشمال]

أغار على الدولة الرومانية فى أثناء القرن الخامس بعد الميلاد جماعات من قبائل كثيرة أغلبها نزحت من وسط أوربا أو الأقاليم التى تحف بالبحر الأسود . وليس هنا مجال بحث حركات هذه القبائل بالتفصيل ، ولا كيف سارت قبائل الوند إلـ (Van dals) والقوط (Golhs) والفرانك (Frank) والهون (Huns) من أقليم إلى آخر . غير أن هؤلاء البرابرة قد استقروا وكونوا ممالك جديدة فى غرب أوربا . وكان لرحلاتهم إلى غرب أوربا أثر كبير .

ويجب الا نظن أن هؤلاء كانوا برابرة بمعنى الكلمة لأن الكثير منهم كانوا على جانب عظيم من الذكاء بل والثقافة أيضاً . ولقد طاب لهم المقام فى بعض جهات الامبراطورية الرومانية ، واستقرت حالتهم فتمدينوا وذلك مثل القوط . على أنه بالرغم من ذلك فإن غارات هؤلاء القوم الجدد عرقل تقدم الأدب والفن وما إليهما . وأخذ الأدب والفن ينكمشان عما كانا فى عصر الدولة الرومانية ، فقل تشييد القصور الرائعة واقتصرت مبانيهم على دور أقل رغدة من تلك التى شيدت فى عهد الرومان واليونان .

ولقد وصف العلماء فيما بعد هذا العصر الذى امتد من سنة ٦٠٠ ب م و ١٢٠٠ ب م إنه كان عهد الظلام ؛ على أنه ليس صحيحاً أن هـذه الفترة

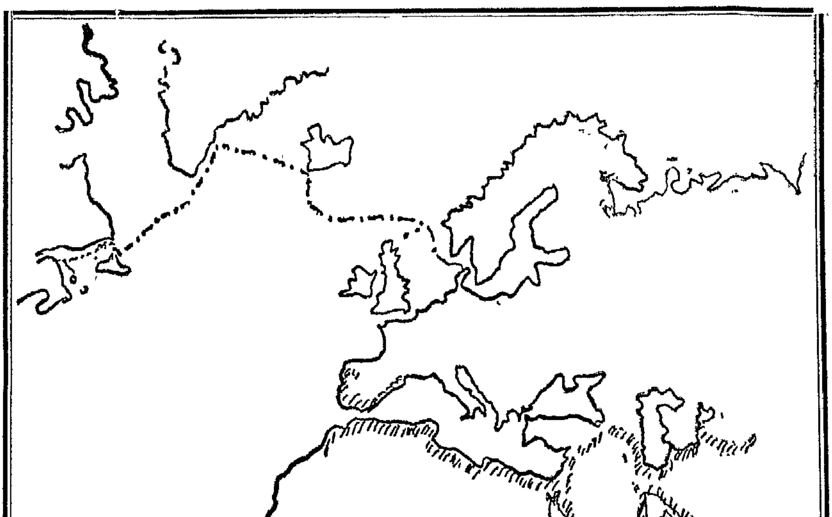
لم تكن فترة تقدم فى العلوم فإن رجالا مثل ألفرد العظيم وشارلى العظيم، أثبتا لنا أن إنه كان بها عباقرة على جانب عظيم من المعرفة فى هذا العصر غير أننا إذا وازنا بين هذه المعرفة ومن سبقها مما كانت قائمة فى العصور القديمة تظهر لنا قلة تقدمها مما يجعله قمينا بأن يسمى عهد العصور المظلمة .

ويستدل على ضعف التقدم فى هذا العصر استدلالا واضحا من تقصير القوم فى زيادة معارفهم عن العالم (فيما عدا اقليمهم) نعم لقد كثرت الرحلات فى أوربا . ولكن إنتشار الدين الإسلامى فى القرن السابع عشر كان من شأنه قطع علاقات أوربا تقريبا بالشرق والجنوب فلقد شن المسلمون الحرب على المسيحيين وعبرا مضيق جبل طارق واستولوا على أسبانيا . ولم يصدهم عن غزو أوربا الا قبائل الفرانك . وبذلك أصبحت الأقاليم جنوبى البحر الأبيض المتوسط وشرقيه تحت سيطرة المسلمين الذين وقفوا سدا منيعا أمام تجول الاوربيين المسيحيين فى هذا البقاع .

ولما كان المسلمون يميلون إلى عدم ركوب الأخطار لكشف أراض جديدة والمجازفة بركوب بحار يجهلونها فقد وقف تقدم الكشف الجغرافى فى هذا الجزء من أوربا . غير أنه كانت هناك بعض أجزاء من هذه القارة لم تؤثر فيها الفتوحات الإسلامية :

النرسمن : ففى شمال أوربا فى اسكندناوة ودنماركه عاش النرسمن (Norsemen) أوسكان الشمال حول فجوات الشواطى أو الفيوردات (Fiords). ووقفت جبال بلادهم وطبيعة أرضهم سداً منيعاً فى طريق نزوحهم من

الشاطئ إلى الداخل . فاعتمدوا فى معيشتهم على خيرات السواحل . ولما لم يكن بأرضهم متسع لإقامتهم جميعا إقامة ينعمون بها بحياة مريحة . فلذلك عمدوا عندما أنسوا من أنفسهم القوة إلى التغلب على الأقاليم المجاورة وقام المستقل منهم مثل الفيكنج بغزو هذه الاقاليم . ولقد كانوا ملاحين مهرة جريئين متعودين شظف العيش بواسل لا يخشون شيئا . فسارت سفنهم حول شواطئ أوربا وفى المحيط الأطلنطى وغزوا شواطئ بريطانيا وإيرلنده والمانيا وفرنسا . وساروا فى الأنهار وكان جل همهم أول الأمر النهب والسلب ولكنهم سرعان ما استقر لهم المقام فى الأراضى التى



(شكل ٢ رحلات النرسمن البلاد الإسلامية)

وصلوا اليها : فاستوطنوا نرمنديا التى سميت باسمهم وانجلتره و إيرلنده . ويقال أن شرذمـة منهم سافرت فى نهر عظيم فى قلب أوربا وأسست المملـكة الروسية .

ولم تـكن أولى رحلاتهم بعيدة عن شواطىء أوربا . ولـكنهم فيما بعد ازدادوا جرأة فاقلعوا فى المحيط الأطلسى الشمالى على الرغم من الأعاصير التى كانت تهب على هذا البحر والتى كان يخشى بأسها بالرغم من عدم وجود الخرائط البحرية أو غيرها التى كانت ترشدهم فى رحلاتهم . ولقد نقل إلينا بعض القصص عن رحلات قام بها غيرهم ولـكن لم يعرف عنها إلا القليل ولذلك يصح أن يقال أن النرسمن كان لهم أول الفضل فى ذلك. نعم قد سافر بعض رهبان ايرلنده إلى جزائر فارو (Faros) و إيسلندا وما إليهما ولـكن لما كان جل همهم الاقامة فى أقاليم ينعمون فيها بالعزلة التى كانوا يرغبون فيها أشد الرغبة فلم يزيدوا برحلاتهم هذه إلا النذر اليسير على المعلومات الجغرافية . ولمـا كانت هذه الجزائر كثيرة ومتشعبه (جزائر أركـنى وشتلند وفارو وايسلند) فكان هؤلاء الجوالون ينتقلون متئدين خطوة لخطوة من جزيرة إلى أخرى .

وكانت أيسلند مقر هؤلاء المخاطرين ، ومنها رحل إرك (Eric) الأحمر سنة ٩٨٥ غربا وسرعان ما عاد وأخبر مواطنيه أنه كشف أرضا جـديدة بها الـكثير من الـكلأ الأخضر قد تصلح موطنا لائقا لمن يرغب الإقامة بها.

ولقد سمى إرك هذه الأرض جرينلند (Greenland) أو الأرض الخضراء . ومن البدهى أنه لم يكن يعرف شيئا عن طبيعة الأرض الداخلية

لهذه الجزيرة العظيمة وإلا لعـدل عن رأيه من حيث صلاحيتها للاقامة على أن الـكثير من مواطنيهم قد أشاقهم وصفه فأقلع عـدد عظيم منهم نساء ورجال إليها وفى سـنة (٩٨٦) استقـروا بها وأسسوا فيها أول مستعمرة أوربية .

وفى سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد أبحر ليف (Leif) بن إرِك صوب الجنوب إلى أرض رأها بعض هؤلاء الجوالة قبل ذلك . وأول أقليم وصلوا إليه كان أرضا جرداء لاتغرى الناس بسكناها ، وهذه كانت بلاشك لبرادور (Labrador) فابحروا جنوبا ورأوا أرضا تغطيها الأشجار الـكثيفة وحطوا رحالهم فى جزيرة نيوفونلند (Newfoundland) ولقدسرهم مناخ هذه الأرض المعتدل ، ولـكنهم كانت دهشتهم عظيمة عند ما عبروا المضيق الذى يفصل هذه الجزيرة عن الأرض لأنهم وجدوا هذه عظيمة الخصب وبها أنهـار و بحيرات مفعمة بالسمك المسمى حوت سليمان (Solmon) وأشجار الزبيب الـكثيرة ولذلك سموا هذه الأرض أرض الكرم (Vinland). ويخيل إلينا أن هذه جزيرة نوفاسكتشيا (Nova Scotia) . ولقد استقروا فى القارة الامريكية حوالى خمسمائة سنة قبل أن يقوم كلبس بأول سفرة من سفراته. ثم قامت جملة حملات من جرينلد إلى فينلمد بقصد استعمارها ولـكنهالاقت مصاعب جمة عاقتها عن الوصول إلى أغراضها ذلك لأن قبائل الهنود الحمر والاسكيموا قاوموهم ، وتخاصم النرسمن فيما بينهم ودبت فيهم روح البغضاء والتنافر ، هذا إلى أنه فى أوائل القرن الخامس عشر انقرضت ذرية المستعمرين من جرينلند لأن الجو كان قاسيا ناءت به صحتهم وغلبهم.

الاسكيموا على أمرهم ، و بذلك خيم الظلام مرة ثانية على القارة الامريكية ولم تنقشع هذه الغمة إلا بعد مائة سنة عند ما زارها كلبس وأتباعه .

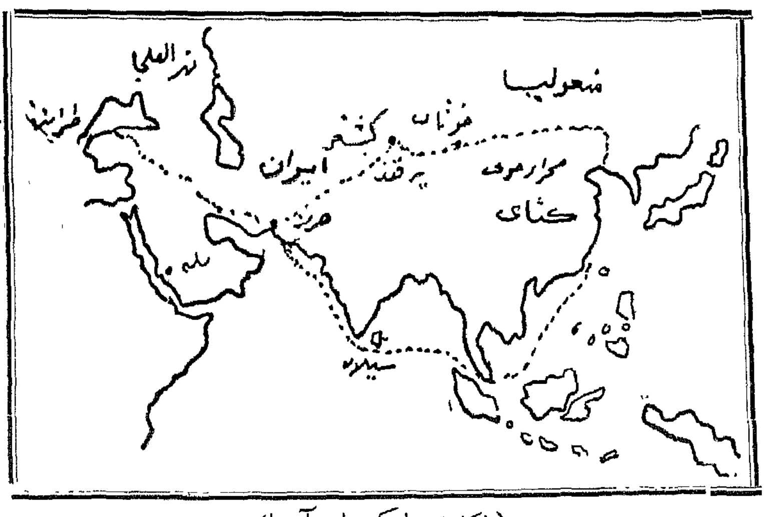
ويجب ألا يغرب على البال أن الڤيكنج لم يكونوا مجرد ملاحين يجوبون البحار ولا غرض لهم سوى السلب والنهب لانهم كثيرا ما أبدوا رغبتهم فى الاتجار مع أهل البلاد التى اتصلوا بها : ويدلك على ذلك قصة أهثير (Ohthere) الضابط الفيكنجى الشهير الذى زار انجلترا وأكرم وفادته الملك ألفرد وأهتم بشأن أعماله وساعد على ارساله فى حملة حول رأس الشمال والبحر الأبيض سنة (٨٩٢) ؛ وكان من نتيجة هذه الحملة أن قامت التجارة مع أركنجل .

وفى العصور الأولى لعهد استعمار أراضى غرب أوربا عمل الفيكنج بطريقة غير مباشرة على تنشيط الكشف إذ كان لهم أثر عظيم فى بث روح النشاط فى سكانها : فالانجليز مثلا كانوا بلا شك أول من اتصل بالفيكنج فى القرنين التاسع والعاشر ، ولذلك نراهم قد صاروا أكثر شجاعة وصلابة وميلا إلى خوض غمار الطرق التجارية والكشف أكثر من ذى قبل .

الفصل الثالث

الجوابون المسلمون — الرهبان المسيحيون — ماركوبولو

المسلمون : كان للثقافة الإسلامية التى أشرنا إليها من قبل أثرها فى الكشف الجغرافى . ولم يكن للامبراطورية الإسلامية مركز واحد يراقب زيادة انتشارها نحو الشمال والشرق والغرب : ففى مدة حكم الوليد سنة ٧٠٥ ب . م ، والسنون التالية كانت جيوش المسلمين مشتغلة بالغزو شرقا حتى نهر السند وارتادت أساطيلها البحر الأبيض المتوسط حتى سردانيا وصقلية ، ولكنهم لما كانوا ينشرون ديانتهم بين أمم أخرى فانضمت لهم ممالك أخرى غير عربية كما يدل على ذلك قيام الدولة العباسية فى بلاد



(شكل ٣ ماركوبولو بآسيا)

الفرس . وفى منتصف القرن الثامن كانت السلطة كلها بيد المسلمين لا العرب . ويمكن الاستدلال على ذلك من أن ستة من الستة عشر رجلا الذين اشتغلوا بعلم تقويم البلدان المشهورين ما بين القرنين التاسع والثالث عشر كانوا من أهل الفرس وأربعة من بغداد وأربعة من الأندلس . وكان اتساع الفتح العربى سببا فى دراسة تقويم البلدان . وكان الكثير من هؤلاء ، تجار يجوبون الأقطار لدراسة أحوالها ومعرفة سهلها ووعرها وجبالها وأوديتها وطرقها البرية والبحرية وما تنتجها أرضها من أنواع الغلات حتى يجبى الخراج بنسبة ذلك ونظمو البريد وقاسوا الابعاد بين البلاد . ومن أولئك الجوابين الذين ساحوا فى القرن العاشر الميلادى ابن خرداذبة سنة ٩١٢ واليعقوبى وقدامه سنة ٩٢٢ والبلخى سنة ٩٣٤ وابن حوقل سنة ٩٨٠ وقد كتبوا فيما شاهدوه من أحوال البلاد التى زادوها كتبا قيمة .

ويجب ألا ننسى مناصرة هارون الرشيد للبحث الفلكى والجغرافى فأمر بترجمة كتابى مرنس Maīrnus و بطليموس وغيرهما وفى أيامه قيس محيط الكرة الأرضية والدرجة الأرضية وطول البحر الأبيض المتوسط وكان الخطأ فى التقدير عما نعرفه الآن قليلا . أما الخرائط لم تتقدم تقدم الوصف الكتابى . واقد أتقن « الاسطرلاب [1] » واستعمل فى قياس الارتفاعات الفلكية وخطوط الطول والزمن وارتفاع الجبال . . . ألخ ومنه اخترع الاسطرلاب البحرى الذى استعمله بحارة كلمبس فى القرن الخامس عشر .

(١) الاسطرلاب خريطة سطحية لدوائر البروج

على أن المسلمين بوجه عام لم يكن لهم أثر عظيم فى الكشف البحرى ذلك لأن العرب كانوا يعتقدون أن الدنيا أرض شاسعة الأطراف مركزها بغداد و يحيط بها بحر الظلمات ، وقل من مال منهم إلى المخاطرة بسفنهم فى البحر بعيداً عن الشاطىء اذ كانوا يصورون لأنفسهم مخاطر تنزل بهم إذا ماحاولوا ذلك . ففى سنة ١٣٩٠ قال أحدهم « ان المحيط الأطلسى لاحدود له ولا تستطيع ايه سفينة أن تبحر فيه بعيدة من مرمى النظر من الأرض ، لأنه حتى على فرض أن الملاحين كانوا على علم باتجاه الرياح فلم يكونوا واثقين من الجهة التى تجر هذه الرياح الفلك اليها . ولما كانت لاتوجد أرض مسكونة بعد هذا المحيط فانهم قد يضلون و يهلكون فى ديجور من الضباب والبخار . وهذا المحيط هو الحدود الغربية للعالم.

ومع ذلك فقد عرف المسلمون الكثير عن بعض أجزاء الدنيا لأنهم جالوا كثيراً فى ربوع آسيا وفى شرق افريقية . و يستدل على ذلك من قصص ألف ليلة وليلة وبخاصة أسفار السندباد البحرى . وليس من المحتمل أن شخصا يحمل هذا الأسم عاش ولو أنه عاش لاستحال عليه ركوب المخاطر التى تقصها علينا رحلاته . ولكن مما لاشك فيه أن الجهات التى ذكرت فى قصصه مثل الهند وسيلان وسومطره (جزيرة القردة) كانت معلومة لدى العرب : وهذا ظاهر من الوصف الدقيق الذى انبأ نابه عن غلات هذه البلاد وسكانها وحيواناتها ومن المحتمل أن القصة مجموعة قصص لجوالين كثيرين جمعت بعضها إلى بعض وأضيف اليها الكثير من نسج الخيال .

ويشتهر هذا العصر فضلا عن سياحات بحارة مثل السندباد وغيره حول شواطىء آسيا الجنوبية ، بجولات قام بها الرحل بين جنوب أوربا وشرق آسيا ووسطها . وقبل الكلام عن هذه الرحلات نذكر طرفا عن المغول والتتر .

ومنغوليا هضبه فى شمال شرق اسيا ، وفى أوائل القرن الثالث عشر انتشر أهلها انتشار الجراد فى السهول الشمالية وغزوا الروسيا والمجر . ولقد طاب لهم المقام واستقروا ونصبوا خيامهم (المصنوعة من الوبر والصوف) فى بعض الجهات التى من أشهرها ضفاف نهر الفلجا . وأرسل البابا فى هذه الأيام الرهبان ليحاولوا تنصير هؤلاء القوم . وأشهر من قام بهذه المهمة الخطيرة كان راهبا يدعى « جون » فوصل إلى المعسكر على نهر الفلجا وقابله رئيس التتر الذى كان يدعى « خان » فأخطره هذا أن عليه أن يستمر فى رحلته حتى يصل إلى مقر الخان العظيم فى منغوليا .

ولم ينل هؤلاء الرجال أى تشجيع من هذا العاهل العظيم واضطروا للعودة أدراجهم آلاف الأميال فى بلاد يجهلونها كانت تفصل بينهم وبين موطنهم ؛ على أنهم لم يهملوا ملاحظة عادة التتر الرعوية وعلو كعبهم فى الصناعة ، و بأسهم فى القتال .

الرهبان : وفى عهد لويس الحادى عشر ملك فرنسا الذى اشتهر بحماسته فى الحروب الصليبية ، سافر راهب يدعى ر بريكى (Rubyuquis) . إلى بلاط الخان العظيم مزوداً برسائل من الملك يدعو الخان فيها إلى الأعتراف بالبابا واعتناق النصرانية . ولقد وصل هذا الراهب وزملاءه إلى نهر الفلجا بعد تجشم الكثير من المصاعب والأخطار واضطروا لمقابلة

خان هذا الأليم وتقدموا اليه لابسين الملابس الكهنوتية حاملين «التوراه» والمزامير . فأخذ الخان منهم هذه الكتب وسمح لهم فى الاستمرار فى الرحلة ، فقطعوا أميالا كثيرة وصلوا الى مقر الخان بعدها فى بلد واقع فى شمال صحراء جو بى العظيمة ، غير انهم فشلوا فى مسعاهم لتنصير هذا العاهل ورجعوا سنة ١٢٥٥ بعد أن صرفوا مايقرب من ثلاث سنوات فى جولتهم الأسيوية .

ولقد تكشفت رحلات هؤلاء الرهبان فى اسيا عن نتائج غريبة ، ذلك انهم وجدوا أن المسيحية كانت متنشره هناك على وجه ما وانهم سمعوا أن مملكة مسيحية قائمة فى الجنوب الغر بى من هذه القارة يحكمها ملك يدعى برستر جون Prestor John ولقد حاول المسيحيون أن يميطوا اللثام عن هذا الشخص الغامض ، وسنذكر فى فصل يأتى بعد محاولاتهم للبحث عنه .

و بينما كان النساك والرهبان يتجشمون العناء لادخال المسيحية وسلطة البابا باسيا كانت تقوم جماعة أخرى من السياح ببذل جهدهم لنشر التجارة الأور بية هناك . وكانت مدينة البندقية هى المجلية فى هذا الشأن ، وذلك لأن مركزها جعلها ميناء عظيمة إذ أنها فى النهاية الشمالية لبحر الأدرياتى وفى منتصف المسافة بين شرقى البحر الأبيض المتوسط وغر بيه ، وعلى مقر بة من ممر يخترق جبال الالب ، و يصلها بواديى الراين والدانوب ، وهذا مما جعل تجارها أكثر سائر تجار مدن أور با ثراء ، لانهم كانوا يقايضون بسلع أور با بضائع الشرق الثمينة ، وسارت سفنهم إلى جميع ثغور أور با كما سمعنا بذلك من مسرحية تاجر البندقية لشكسبير . هذا فضلا عن أن كثيراً من البنادقة جاسوا خلال الأرض الداخله إلى مسافات شاسعة و بلاد بعيدة .

ماركو بولو : وكان أشهر رحالات البنادقة ماركو بولو : ففى وسط القرن الثالث عشر (سنة ١٢٦٠ م) سافر أبوه وعمه إلى جنوب الروسيا و بعد أن تجولا فى الجهة الشمالية الشرقية أغريا على السفر إلى بلاط قبلاى خان فى قلب الصين . وقد أرسل هذا معهما رسالة إلى البابا يسأله فيها أن يمده برجال لتعليم التتر العقائد المسيحية ولكنهما عندما وصلا وجدا البابا قدمات ، واضطرا للانتظار حتى يختار بابا آخر . و بعد وقت طويل عاد أدراجهما إلى إقليم قبلاى خان سنة ١٢٧٠ ومعهما ماركو بولو وراهبان أمكنهم اقناعهما فى بالذهاب معهما على أن هذين مالبثا بعد سفر قصير أن رجعا . ولقد سافر هؤلا الرحالة الثلاثة من شاطىء سوريا واقتحموا أرض ارمنيا و بلاد الفرس حتى وصلوا مدينة بغداد ومن ثم استمروا حتى خليج العجم ثم عادوا مخترقين بلاد الفرس حتى وصلوا أفغانستان . ولقد مروا فى طريقهم على مراكز التجارة المهمة وهى كشغر و يرقند وخوتان ودخلوا صحراء جوبى الجرداء ومروا فى طريقهم على عدة مدن غمرتها رمال الصحراء المتنقلة . و بعد سفر استمر ثلاث سنوات وصلوا إلى بلاط قبلاى فى شانجتون فى جبال خينجان .

ولقد أكرم الخان الذى كان يسكن فى قصر فخم وفادة المسافرين وأدخل ماركو بولو فى خدمته ورقاه إلى أرقى مراتب دولته واستخدمه فى السفر من جانبه فى كل أقاليم الصين على أن يدون مذكرات عن هذه

الرحلات ، وظل في خدمه سبعة عشر عاماً ولم يسمح له بالعودة إلى بلاده عندما طلب ذلك وقال له ولأخوته أنه تآخى معهم بل ويحبهم ولا يستطيع مفارقتهم وأنه مستعد لنفحهم بكل مايطلبون من أسباب الثراء والغنى ، فبقوا على الرغم منهم حتى حانت لهم فرصة للهروب : ذلك أن خان الفرس أرسل سفيرا إلى قبلاى طالبا البناء بابنته فوقع الإختيار على بولو وأخوته لاصطحاب العروس إلى موطنها الجديد فاتخذوا طريق الشاطىء الشرقى لأسيا وعبروا مضيق ملقا واخترقوا جزيرة سيلان ثم سافروا نحو هرمز وتركوا العروس هناك ثم فروا إلى طرابزون على البحر الأسود ومن ثم أقلعت بهم سفينة إلى البندقيه . وعندما وصلوا إلى هذه المدينة تنكر لهم أهلها ولم يصدقوا أنهم هم الناس الذين سافروا من بلدهم منذ ردح من الزمن . على أنهم ما كادوا يظهرون لمواطنيهم الملابس الفخمه والجواهر التى جاءوا بها من الشرق حتى صدقوهم . ولقد اندلع حرب بعد ذلك بزمن بين البنادقة وأهل جنوا فأسر فى إحدى المعارك ماركو بولو سنة ١٢٩٨ م وسجن وفى أثناء سجنه كتب وصفا لرحلته عبر آسيا وحياة رعايا الخان . ويحوى هذا الكتاب معلومات شيقة حقيقية ولوأن خياله كان بلا شك خصبا فيما يختص بالتفصيل : فلقد شرح بولو أحوال التتر وصفا مطولا فقال عنهم أنهم لايستقرون فى بقعة واحدة ، ذلك لأنه عندما يحل الشتاء يرحلون إلى بقاع أكثر دفئا كى يجدوا مراعى كافية لمواشيهم ، وأما فى الصيف فيعمدون

إلى المواطن الباردة في الجبال حيث يفيض الماء ويكثر الكلأ وتكون أنعامهم آمنة من لسع الحشرات ، ويستمرون في هذه الأيام صعوداً فوق الجبال باحثين عن الكلأ لأن مواشيهم وأغنامهم أكثر من أن يكفيها الكلأ في بقعة واحدة ، ويحملون خيامهم معهم أينما حلوا وطاب لهم المقام » . ولقد شرح الأقاليم المختلفة لأمبراطورية وصفاً مفصلاً أعظم التفصيل وأبان مقدار تقدم سكانها في المدنية والحضارة . ويقول « أن بالبلاد طرقاً رئيسية عظيمة وبها محطات على بعد كل خمسة عشر ميلاً واستراحات المسافرين . وفي كل استراحة أربعمائة حصان على أهبة الاستعداد لأن يستخدمها رسل الخان حتى يتسنى لهم دائماً السفر السريع . وعلى مسيرة كل ثلاثة أميال قرى يقطنها الرسل الراحلين وهولاء يتمنطقون بأحزمة معلق بها أجراس صغيرة حتى يشعر بقدومهم على مسافة بعيدة من قدومهم . ولما كانت المسافة التي يقطعونها في كل رحلة ثلاثة أميال فان جلجلة الأجراس تنبىء بقدومهم ، فيكون الرسول الآخر مستعداً للسير بالرسالة مسافة أخرى عند قدوم حامل البريد . وقد غرست الأشجار على بعض أجزاء الطرق كي يستظل بها المسافرون في الصيف ولكي يرشد عن الطريق في الشتاء عندما يغطي الثلج الأرض وتندثر معالم السبل . »

وليس هنا مجال الوصف المطول للأشياء الكثيرة الهامة التي أخبرنا عنها بولو عن اليابان والممالك الأخرى التي سمع عنها ، ولا شرحاً للفحم

حوز يت البترول وغير ذلك من الغلات القيمة التى رآها فى رحلاته ولم يترك زيادة لمستزيد مدة طويلة ، ولكن أجل ما فى كتابه ذلك الوصف الخيالى للشرق وهو صورة ناصعة لعجائب هذا الاقليم الغامض وجماله . وقد خلد التاريخ لهذا الرحالة مركزا حسنا فى تاريخ الكشف الجغرافى ، وهو فى العصور الوسطى بمثابة هيرودت فى القرون القديمة . ولكن مما يؤسف له أن أحدا من عصره لم يثق به . ولم يوجد فى تاريخ الكشف البرى بعد عمل ماركو بولو مما زاد فى مقدار المعارف الجغرافية قبل القرن الخامس عشر

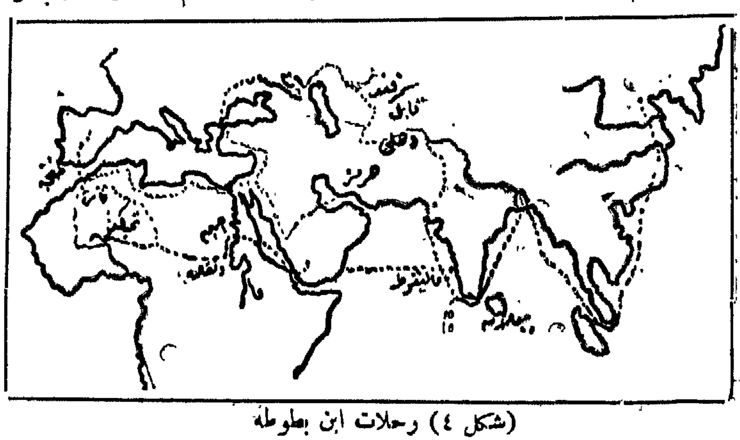
الفصل الرابع

الأمير هنرى الملاح

يبدأ بانتهاء القرن الرابع عشر عهد جديد فى تاريخ الكشف إذ أنه حتى هذا التاريخ كان مقصورا على الكشف البرى مع رحلات ساحلية قصيرة ، وإذا استثنينا رحلات هانو القرطاجنى ورجال الشمال فانه لم يحاول أحد الابحار فى رحلات طويلة عبر المحيطات . ولقد قام بعض السائحين بعد مركو بولو برحلات برية وقطعوا مسافات طويلة ومن هؤلاء أودريك (Oderick) الذى سافر من البندقية عام ١٣١٦ واخترق فارس والهند والصين وهضبة التبت ورجع إلى بلدة عام ١٣٢٠ .

ابن بطوطه :

ومنهم محمد ابن بطوطة أحد أهالى طنجة وهو أعظم سائحى العرب وقد



(شكل ٤) رحلات ابن بطوطه

فاق مركو پولو فى اتساع نطاق رحلاته ولكنه لم يفقه فى تنوعها . وقد بدأ هذا السائح رحلته فى طنجه عام ١٣٢٥ قاصدا الحج الى بيت الله الحرام بمكة وفى غضون ثلاثين سنة زار فلسطين و بلاد الفرس وأرمينية والقرم والقسطنطينية وبخارى و بلاد الأفغان والهند ثم عين قاضيا فى دهلى . ومن ثم خرج من الهند مع وفد إلى الصين عن طريق البحر ماراً بجزيرة سرنديب (سيلان) وملديف وسومطره إلى أن وصل إلى مدينة الزيتون التى كانت أعظم ثغر بالصين فى ذلك الوقت ثم رجع إلى قاليقوط (بالهند) بهذا الطريق وسافر منها إلى هرمز ثم إلى مكة ثم عاد بعد ذلك إلى طنجه سنه ١٣٤٩ . ثم خرج منها إلى اسبانيا ثم بعد ذلك اخترق مراكش وسافر منها إلى السودان ازاء نهر النيجر الذى زعم أنه النيل إلى أن وصل إلى تمبكتو ثم رجع إلى فارس سنة ١٣٥٣ وهناك كتب وصف رحلاته

و بعد ذلك بوقت قصير أخذ اتجاه الكشف طريقا آخر . وذلك لأن الحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحيين أظهرت مقدار اعتماد أوربا على غلات الشرق . ولكن لما كانت كل الطرق التجارية فى شرق البحر الأبيض المتوسط وعلى شاطىء إفريقية الشمالى فى أيدى المسلمين اتجهت أنظار الأوربيين إلى البحث عن طريق بحرى آخر للحصول على سلع الشرق التى ألحت الحاجة إليها . ولقد سافرت سفن البندقية وجنوه إلى شواطىء آسيا الصغرى لجلب البضائع التى كانت ترد إليها بالقوافل ولكن الضرائب التى فرضها المسلمون عليها كانت فادحة ولذلك اتجهت

النية إلى البحث عن طرق ملاحية أخرى . ولقد أخذت البرتغال على عاتقها هذا الأمر لأنها أزاحت عن كاهلها يد الحكم المغربى سنة ١٢٥٠ واتصلت بانجلتره وفلندرز (بلاد الفلمنك) برحلات تجارية بحرية مما كان سببا فى تقدمها فى الملاحة . هذا إلى أن موقعها (لأنها كانت ملتقى طريق البحر الأبيض المتوسط وطريق الأطلس) جعل لها شأنا يذكر فى ذلك .

ولقد وضع الملك جون البرتغالى (١٣٨٣ — ١٤٣٢) أول لبنة فى عظمة البرتغال البحرية وكان من أولاده الأمير هنرى الملاح التى كانت أعماله أعظم حلقة فى سلسلة الحوادث التى جعلت البرتغال أمة بحرية عظيمة . ولقد أنشأ هذا الأمير مدرسة بحرية فى قرية شاجر بالقرب من رأس سنت فنسنت واستخدم جاكوم المايورقى وهو ذلك الملاح البارع فى عمل الخرائط والآلات الصالحة للملاحة كما استخدم الأساتذة من العرب والاسرائليين فى تعليم البرتغاليين . وكانت عاقبة أعماله المثمرة تحسين الخرائط والسفن الكثيره . وفى عام ١٤١٥ استولى على مدينة سبته وكانت سوقا تجارية عظيمة للمغاربة و بذلك عرف مقدار التجارة البرية فى شمال افريقية . وفى عام ١٤١٨ شرع هنرى فى إرسال بعثات حول ساحل افريقية الغربى وعرف منذ ذلك الوقت هذا الطريق الموصل إلى الهند بالطريق البرتغالى . وفى سنة ١٤٢٠ كشف أحد أتباعه جزائر مديره واستولى عليها وفى عام ١٤٣١ كشف آخر جزائر ازور واستعمرتها البرتغال سنة ١٤٣٦ .

وفى زمن الأمير هنرى كان ساحل أفريقية الغربى معروفاً حتى رأس بجادور (الرأس البارز) وهو رأس ناتىء خلفه شواطىء رملية وحوله تيارات قوية وحاول كثيرون عبره فلم يفلحوا لصعوبة الملاحة على الشاطىء هنالك . ولكثرة الخزعبلات التى ملأت القوم فزعا ورعبا . وكان التغلب عليها أعظم صعوبة لدى الأمير هنرى على أن أحد أتباعه اجتاز هذا الرأس سنة ١٤٣٤ ووصل آخر إلى ريو دورو التى ظن أنها مصب نهر ؛ ونظرا إلى حدوث أزمات سياسية بالبرتغال وقف تيار الكشف حتى نهاية سنة ١٤٤١ عندما وصل سائح آخر إلى رأس بلانكو (الرأس الأبيض) وفى العام التالى استحضر البرتغاليون ارقاءهم الأولين كما جلبوا الذهب إلى بلادهم . وفى سنة ١٤٤٣ وصلوا إلى خليج أرجوين الذى يبعد عن رأس بلانكو بمقدار ١٢٠ كيلو متر جنوباً واكتشفوا جزيرة اتخذوها مركزا للتجارة مع ولايات العبيد و بلاد السنغال وغمبيا . و بعد قليل أصبحت هذه الجزيرة سوقا حافلا بالتجارة ، ثم وصلوا إلى رأس فرد سنة ١٤٤٣ ورأس بلماس سنة ١٤٤٥ . ولم يكن أحد إذ ذاك يعارض فى استرقاق العبيد الوثنيين ، ولبث المغاربة ردحا طويلا يجلبون السود عن طريق الصحراء و يبيعونهم فى تونس ومراكش

ومما يؤسف له أن الالحاح فى طلب الذهب والرقيق أنسى البرتغاليون الغرض الأساسى الذى ساحوا من أجله والذى كان يرمى إليه أميرهم ؛ فشنوا الغارات على الأهالى الذين أخذوا يكرهون البرتغاليين واعتقد هؤلاء أنهم انما يؤخذون لأكلهم . ومما يؤسف لى أن تكون هذه أعمال مسيحية

ولـكن الأمير هنرى كان يقول أنه إنما يأخذهم لتثقيفهم على أن الأهالى كانوا يمعنون فى القسوة عليهم .

وفى سنة ١٤٤٥ اكتشف رأس النخيل (بلماس) وسمى كذلك لانتشار النخيل حول الرأس وكان حدا فاصلا لإقليم الصحراء . وقد دهش الأهالى لرؤيتهم السفن الشراعية الـكبيرة لأنهم لم يروا مثلها . وقد اعتقد بعضهم أنها حيتان كبيرة وآخرون ظنوها شبحا أو طائرا كبيرا . وقد نشأ عن هذا الـكشف إرسال بعثة أخرى لفتح أبواب التجارة ولـكشف النيل الغربى إن أمكن فقد زعم الأمير هنرى أنه ليس بعيداً وسرعان ما أدى البحث عن مجرى ماء عذب وذلك هو ماء نهر السنغال . لـكن الأهالى أظهروا عداءهم وردوا التجار على أعقابهم .

وفى عام ١٤٥٥ سافر ملاح بندقى كان فى خدمة الأمير هنرى إلى جزائر مديره ثم كشف نهر غمبيا واستمر عدة أيام حيال خليج غانه بحيث تجاوز حدود الاستكشافات الجغرافية السابقة .

وفى عام ١٤٦٠ استكشف دياجو جونس رأس فرد وكانت سياحته هذه آخر كشف فى عهد الأمير هنرى ثم صارت جزائر ازورز وجزائر فرد قواعد الاستكشافات التالية .

وكانت عاقبة أعمال الامير هنرى ذات أهمية خالدة فقد محا أثر الخزعبلات التى سبق ذكرها وكان أحسن مثال للمستكشفين الآخرين .. وكانت عاقبة أعماله الأخيرة كشف طريق بحرى للهند والشرق وانشاء دولة استعمارية أوربية .

الفصل الخامس

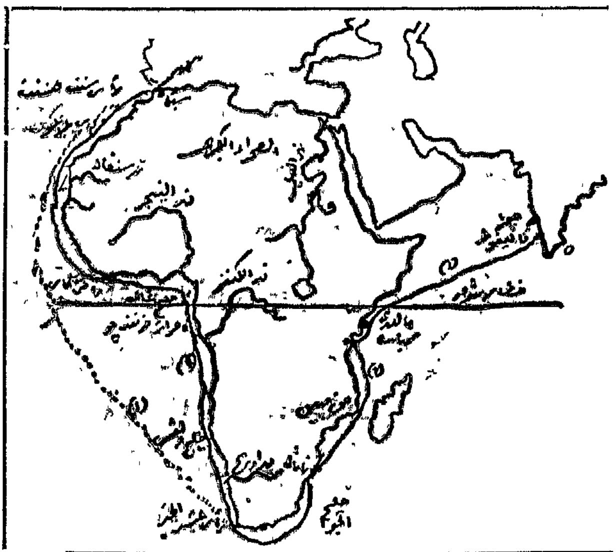
برثلميو دياز — فاسكو دا جاما
والملاحة حول رأس الرجا الصالح

(Vasco da Gama) (Bartholonew Diaz)

عندما مات الأمير هنرى سنة ١٤٦٠ لم يكن قد نفذ غرضه من استكشافه ساحل إفريقية غير أنه رسم الخطط المستقبله لذلك وكان على أهبة الاستعداد لمتابعة أعماله ولكن مما يؤسف له (أن ملك البرتغال الذى حكم مدة العشرين السنة التالية لم يكن ميالا لتشجيع الكشف الجغرافى ومناصرته على أنه بالرغم من ذلك فقد تقدم الكشف بعض التقدم . ففى سنة ١٤٦١ أقلع بحار يدعى بدرو داسنترا إلى خليج غانه وسار ٦٠٠ ميل حول شواطئه حتى وصل إلى خليج بنين وفى أثناء سفرته رأى جبال سيراليون (جبال الأسد) وسماها كذلك لأن صوت الرعد على قممها كان يشبه زئير الأسد .

وفى سنه ١٤٧١ أكتشف فرننديو الجزء الجنوبى من الشاطىء وجزيرة سماها باسمه وفى هذا العام اخترق خط الاستواء ولم يحصل للملاحين شىء مما كانوا يتوهمونه عند عبور هذا الخط الغامض ؛ وأهم ما لوحظ اختلاف النجوم الظاهرة واختفاء النجم القطبى تقريباً تحت الأفق ورؤية الصليب الجنوبى (وهو مجموعة من النجوم)

أما ملك البرتغال الذى تولى الحكم سنة ١٤٨١ فقدكان شغوفا كالأمير هنرى لمتابعة الكشف واستعمار شاطىء أفريقية للبرتغال ، فأرسل رؤساء ملاحيه وأمرهم بوضع صلبان ضخمة فى الجهات الهامة والاستيلاء على الأقاليم باسم مملكتهم، لذلك أقلع ديجوكو (Deogo Coa) سنة ١٤٨٤ حتى رسا عند مصب نهر الكنغو وهناك نصب صليبا . ولقد سر رئيس القبيلة المجاور من سلوك البرتغاليين وعاملهم بالحسنى . وفيما بعد عاد كو ومعه قسيس ونصر هذا الرئيس فكان أول مسيحى وصل جنوب خط الاستواء وفى سنة ١٤٨٦ وصل كو إلى مايعرف الآن بخليج والفش ولكنه لم يغامر إلى جهة أبعد منه وترك لبحار آخر شهير الوصول إلى أقصى جهات القارة جنوبا.



(شكل ٥) طريق الرأس إلى الهند
فاسكو داجاما —
دياز ...

وفى سنة ١٤٨٦ غادر برثلميودياز (Bartholomew Diaz) البرتغال ومعه ثلاث سفن وكانت مهمته البحث عن أقصى القارة الإفريقية جنوبا واستكشاف مملكة القس (جون) فسار حذاء الشاطىء حتى وصل مصب نهر أورنج ولكن الرياح دفعته نحو الشرق . ولما لم يجد أرضا أمامه سار نحو الشمال حتى وصل إلى خليج موسل سنة ١٤٨٨ ثم اقتفى أثر الساحل صوب الجنوب إلى أن وصل إلى خليج الجوا (وسمى هذا الخليج كذلك لأنه كان محطة لسفره فيما بعد أدت إلى إنشاء مستعمرة جوا على ساحل الهند) ثم وجد أن الساحل يسير شمالا مما جعله يعتقد أنه طاف حول افريقية ثم ألح عليه البحارة فى العودة فعاد وكشف ذلك الرأس الذى لم يكن معروفا وقد سمى هـذا الرأس الذى زعزعته عنده الرياح رأس العواصف ، ثم عاد إلى بلاده فهنأه الملك على كشفه وأبدل الملك اسم الرأس برأس عشم الخير تيمنا بأن البرتغاليين سيفتحون الطريق إلى الهند لجلب ثروتها . وكانت أهم سفرة فى تاريخ الكشف الجغرافى إذ بعث فى نفوس الكاشفين الأمل وشجعهم على القيام بالرحلات مدة القرن التالى.

ومما لا شك فيه أن هذا هو الذى حض كلمبس على السفر نحو الغرب لأنه قام بذهنه أنه إذا كان فى استطاعة الناس أن يسافروا صوب الغرب مسافات طويلة فيمكنهم السفر غربا لاستكشاف أراضى هذه الجهة .

ولقد كان من المنتظر طبيعيا أن يعد ملك البرتغال رحلة أخرى لاتمام العمل الذى قام به دياز ولكن حصل بعض التلكؤ . ومع أن بعض الجوابة البرتغاليين سافروا إلى بلاد الحبشة حيث كشفوا مملكة

القسيس جون فلم يفكر فى إرسال بعثة كشفية ثانية إلا فى سنة ١٤٩٧ إذ قام فاسكو دى جاما من البرتغال . وفى هذه الأثناء سافر كلبس صوب الغرب إلى جزائر الهند الغربية واتجهت الأنظار نحوه وصرفت مؤقتا عن إفريقية و بما أنه أشيع أنه وصل إلى سواحل الصين فأثار ذلك فى نفس ملك البرتغال حمية إتمام الرحلة حول شواطىء جنوب افريقية فاختار فاسكو دى جاما للقيام بالمهمة واعتبرها مشروعا وطنيا وأقلع الربان بين أصوات الجماهير وحماستهم فأقلع بثلاث سفن سارت حذاء الشاطىء الغربى حتى وصل إلى خليج غانة ومن ثم سار صوب الجنوب لأنه قدر أن هذا يوصله إلى غرضه دون التعرض للمصاعب والأخطار التى لاقاها دياز فى طريقه . وقد ظل ثلاثة أشهر لم ير فى أثنائها أرضا فثارت عليه البحارة ولولا صرامته وحزمه لما استطاع أن يحملهم على الاستمرار . وكان البحر مضطربا كثير الأعاصير والجو باردا . وأخيراً وصل إلى الخليج الصغير (الجوا) وهناك تمونوا باللحم ومن ثم استمروا فى طريقهم حتى وصل إلى النقطة التى وصل إليها دياز وهى مصب نهر جريت فش . وفى يوم الميلاد كشفوا شاطئا جميلا سموه ناتال لأن كشفه كان يوافق يوم ميلاد المسيح و بعد أن استقروا فى خليج فى الشمال (كيلمانى) انتشر بينهم المرض لعدم وجود غذاء طازج ولكنهم قاوموا المرض وتغلبوا عليه ثم استأنفوا السير حتى وصلوا إلى موزمبيق ، وهناك التقوا بالسائحين العرب الذين كانوا يجوبون البحار بين البحر الأحمر وشاطىء الهند الشرقى وقد اضطهد الملاحون أهالى ممباسا ولكن عند مالندى فى شمالى هذه الجهة استقبلهم

الحاكم الوطنى استقبالا حسنا ومن ثم بدأت آخر رحلة من رحلتهم .

ولقد أمد هذا الحاكم جاما بدليل سار بالسائحين صوب المحيط الهندى وبعد عشرين يوما وصلوا إلى ساحل الهند ١٤٩٨ وأثبت بذلك النظرية التى كان يقول بها الأمير هنرى وعمل إلى الوصول اليها وقد رست السفن على بلدة قاليقوط على الشاطىء الجنوبى الغربى للهند .

وعندما نزل البرتغاليون إلى الأرض أعلنوا أن مهمتهم البحث عن المسيحيين ومشترى التوابل ولقد قابلهم الأهالى بادىء الأمر مقابلة حسنة ولكنهم ما لبثوا أن أظهروا لهم العداوة والبغضاء مما اضطر جاما إلى السفر عائدا إلى وطنه . وقد كانت العودة إلى إفريقية طويلة وشاقة وانتشر المرض بين الملاحين وقضى على عدد عظيم منهم وبعد أن وصل إلى مالندا اضطر لترك أحد فلكه لأن بها عطبا لا يرجى إصلاحه وسار حول الرأس بصعوبة ثم تابع رحلته حتى وصل إلى جزائر أزور ثم ألقى عصا التسيار فى مصب خليج نهر تاجه سنة ١٤٩٨ .

وليس هنا مجال البحث فى تعدد الأسفار التى قام بها الرحالة البرتغاليون صوب الهند والشرق مدة خمسين السنة التالية فقد قامت أساطيل تجارية كثيرة للاتجار مع أهالى الهند الذين كانوا يعاملون معاملة سيئة وقاسية عند الامتناع عن تبادل السلع معهم .

وأسس البرتغاليون بلدة « جوا » وقاليقوط مركزين للتجارة . ولقد ظهر البحارة البرتغاليون فى جنوب بلاد العرب والخليج الفارسى وسيلان ووصلت تجارتهم إلى سومطره وجزائر البهار ، (ملقا) وغزوا

بلادا كثيرة بأفريقية وتحقق حلم القرن الخامس عشر وتوطدت شهرة البرتغال وصارت مملكة واسعة الثراء عظيمة الجاه .

الفصل السادس

كلمبس (Columbus) وكشف الدنيا الجديدة

لقد كانت أعمال الأمير هنرى وغيره ممن جابوا الأقطار البعيدة سببا فى إثارة شعور الاهتمام بالكشف ، وكان من نتيجة رحلات البرتغاليين أن تحركت أفئدة الناس للبحث عن أقاليم جديدة أكثر اتساعا ؛ ومن هؤلاء الذين تأثروا بالتقدم الكشفى كرستفر كلمبس الذى سنذكر أعماله فيما بعد .

جرى القول بأن كلمبس من أهالى جنوا من أعمال إيطاليا . وسواء أصح هذا الزعم أم لم يصح فمما لاشك فيه أنه قضى مبدأ حياته بحارا فى السفن الجنوبية وأبحر فى هذه السفن من الشاطىء الغربى لافريقية جنوبا حتى شاطىء ايسلنده شمالا كما خاض عباب البحر الأبيض المتوسط كله. ولقد حكى عنه أنه قال « أقلعت فى كل سفينة مخرت فى البحار » وقد يصح أن يقال عنه أنه تعلم كل شىء خاص بالملاحة وعرف كل شىء عن العالم حينئذ وجمع كل ما أمكنه من المعلومات الجغرافية ، وآراء بعض القدماء عن شكل الأرض وحالتها العامة ، وألم بكتاب ماركو پولو وآراء اليونانيين القدماء

الجغرافية . ولقد أثارته قصص البرتغاليين المستكشفين وزادته شغفا لمنافستهم في هذا الصدد وتمكينه من اختبار نظرياته بنفسه .

جاء إلى البرتغال سنة ١٤٧٠ و بعد فترة وجيزة تزوج من سيدة من أهل مديرا وفي أثناء مكثه في هذه الجزيرة تعلم الكثير من البحارة البرتغاليين الذين قدموا إلى هذه الجزيرة من حين إلى آخر ومن المحتمل أنه في هذه الفترة تحددت آراؤه وأقتنع بأنه يستطيع الوصول إلى الشرق إذا سافر غربا لأن الأرض مستديرة كما قال اليونانيون ، وأخذ يفكر في الإشاعات التي سمع بها من وجود كتلة أرضية كبيرة غربي الدنيا القديمة . فلقد تحدث القرطاجنيون عن أنتيلا وذكر أفلاطون وجود قارة أتلنتس في المحيط الغربي وحصل على خريطة تسكانلي الإيطالي الماهر وقد ظهر فيها المحيط الأطلسي ممتداً حتى شواطيء آسيا ورسم خطاً وهمياً يفصل بين أوروبا وأفريقية وهذه القارة . هذا إلى الأقاصيص عن أشياء قذف بها المحيط إلى الشاطيء من قطع من الأشجار منحوتة نحتا عجيبا ومن بقايا أجسام بشرية .

ولقد أخذ يغربل هذه المعلومات واستنبط منها وجود أرض في الجزء الغربي من المحيط وأنها مسكونة وأنه من المستطاع الوصول إليها ؛ ومن أجل التأكد من صحة هذه المعلومات قرر القيام برحلة عبر المحيط الأطلسي ولكن النفقة كانت باهظة ولا بد له من الحصول على المساعدة المالية فحاول أن يحصل عليها من مدينة جنوه العظيمة التجارة ولكن أرباب السلطة رفضوا معونته ففكر في ملك البرتغال وظن أنه قد يساعده رجلا

مثله مثل الأمير هنرى الملاح يرغب فى السفر من أجل الكشف؛ ولكن هذا الملك رفض أن يناصر أى كشف من شأنه التدخل فى أمور المستعمرات البرتغالية غير أن هذا الملك أرسل سفينة كبيرة لتسبق كلمبس فى كشفه ولكنها عادت أدراجها بعد سفرة غير موفقة . ولقد اتجه كلمبس بعد ذلك نحو أسبانيا ولكن الملك فردناند والملكة ايزابلا كانا منهكمين فى قتال المغاربة فكونا لجنة لفحص المشروع وهذه قررت أن المشروع عبث ومستحيل ولكن بعض الأشراف أظهر بعض الاهتمام بيد أنهم لم يستطيعوا إقناع الحاكمين بمديد المعونة لكلمبس . وأرسل عندئذ أخاه إلى بلاط هنرى السابع ملك انجلتره ولكن سفينته أصابها العطب وضاعت الخرائط وتأخرت الرحلة بسبب إعداد خرائط جديدة

وأخيراً وافقت ايزابلا على مد كلمبس بالمال اللازم وعينته أميراً للبحر وحاكماً لكل أرض جديدة يكتشفها كما قررت أن يكون له نصيب من الغنائم وأرسلت معه رسائل من ملك اسبانيا إلى الخان العظيم وبرستور جون وكل حكام الشرق الذين يزور بلاطهم . ولا مشاحة فى أن الملكة تأثرت من قول كلمبس بأنه سينصّر كل قبائل الشرق . على أنه بالرغم من المساعدة الملكية فانه لاقى صعوبات عظيمة فى الحصول على بحارة يخاطرون بحياتهم فى بحار مجهولة . وأخيراً تمكن باستعمال الرشوة والقوة من العثور على بحارة للسفن الثلاث وكان عددهم ١٢٠ ومعهم مئونة تكفيهم ١٢ شهراً .

وفى أغسطس سنة ١٤٩٢ أبحر كلبس من ثغر بالوس Palos ولكنه ما كاد يبدأ رحلته حتى ثار البحارة عليه عند ما أبصروا بركان تينريف فى جزائر مديره ، وازداد رعبهم عند ماغابت عنهم معالم الدنيا القديمة فأخذ كلبس يهدىء روعهم بإخبارهم عن الثروة التى سيجدونها وأدلى لهم بمعلومات خاطئة عن المسافة التى كانوا يقطعونها يومياً حتى لايظنوا انهم ابتعدوا كثير عن أرض بلادهم وسرعان ما اجتازوا بحر سارجوسا ، وهو جزء من المحيط الأطلسى كثير الأعشاب ، فقرروا فى بادىء أمرهم ظنا منهم أنهم اقتربوا من الأرض؛ ثم أنهم كانوا يرون أحيانا طيوراً فيطمئنون لمصيرهم ، ولكن الرياح التجارية كانت دفعتهم نحو الغرب فخافوا من أنهم قد لايستطيعون العودة إلى بلادهم فهاجو وماجوا ولولا مثابرة كلبس وحذره لثاروا عليه وأرغموه على الكف عن مخاطرته. على أنه بعد وقت قصير وجد نوعا من الطحلب مما ينمو فى الأنهار ورأى سمكا أخضر مما يعيش بين الصخور ، وأغصانا بها ثمر العليق فصلت حديثا من أشجارها : كل هذه وغيرها من أمارات الأرض ملأت نفوسهم طمأنينة وهدأت من روعهم حتى أبصر كلبس بنفسه « مساء ذات ليلة ضوءا باهرا على مسافة بعيدة فطلب إلى غيره من التجار أن يبصروه وكان هذا الضوء منبعثا من مشعل مما يحمله صيادوا السمك يرتفع و يخبوا مع الموج ، وفى الساعة الثانية صباحا ظهرت الأرض فتوقفت

السفن عن السير حتى الفجر ، ولقد سر كلمبس لأن أحلامه أخذت تتحقق ودب فى نفسه الرجاء والأمل .

وفى صباح اليوم التالى (الثانى عشر من أكتوبر سنة ١٤٩٢) ظهرت جزيرة جميلة هى جزيرة سن سلفادور (أو وتنج من جزائر البهاما) فاغرورقت عينا كلمبس ورجاله بالدموع فرحا وسجدوا لله شكراً على نجاحهم واستولوا على الجزيرة باسم ملك أسبانيا . ولقد أخذ الفزع والروع من الأهالى كل مأخذ بادى بدء على أنهم ما لبثوا أن استردوا شجاعتهم عندما آنسوا من البحارة اللطف ، وأخذوا يتأملون فى سلاحهم اللامعة وملابسهم الفخمة وقايضوهم بقبعات حمراء وعقود من الخرز ببغاوات وسهام وخيوط فضية . وسمع كلمبس من الأهالى أن الذهب موجود فى كيو بنكان Cubancan ولما كان متشبعا بالرأى أنه ليس بعيداً عن شاطىء آسيا فظن أن هذا إشارة إلى مقر قبلاى خان فصمم على الابحار إلى هذه الجهة فوصل إلى كوبا وقد ظنها بادىء الأمر أنها بلاد اليابان وانه وصل إلى آسيا ، فسار إزاء سواحلها وأرسل بعثة إلى داخلها فاحتفى بها الأهالى ورحبوا بها أيما ترحيب ثم رأوا الأهالى يدخنون أوراق شجرة مجففة ملفوفة يسمونها تاباكوس وهى الدخان المعروف ، ورأوا الذرة والقطن . ولكن كلمبس كان وراء شىء أثمن يأخذه ليقدمه لاهل أسبانيا دليلا على نجاحه ولذلك واصل رحلته حتى وصل إلى جزيرة هاييتى ولمحاكاتها لاسبانيا أسماها هسبنيولا .

ولقد وجد الأهالى حيثما حل على جانب عظيم من الوداعة ولطف

المعاشرة ولكنه لم يجد ذهبا . وثبط من عزمه وهمته عطب أصاب أحد سفنه فنزل بحارتها فى الجزيرة للبحث عن الذهب والحصول على معلومات أخرى يدلون بها عند العودة إلى أسبانيا ، وهجرته سفينة أخرى وذهب بحارتها للبحث عن الذهب ولم يعودوا إلا عند العودة إلى أرض الوطن :

وفى الرابع من يناير سنة ١٤٩٣ أبحر كلمبس إلى بلاده فصادف زعازع وأعاصير فى الفترة الأخيرة من رحلته قبل وصوله إلى جزائر ازور فاستراح قليلا بهذه الجزائر وشكر هو والبحارة الله على نجاتهم . ولكن لما كان السكان من البرتغاليين المعادين للاسبان فأسرع للفرار منهم و بعد رحلة شاقة وصل إلى مصب نهر التاجه فقابله ملك البرتغال بالترحاب ولكنه تأثر من الفرصة التى ضاعت عليه وأخيرا بعد رحلة استغرقت حوالى سبعة شهور ونصف وصل إلى ثغر بالس ثانية وقد سر الأهالى بقدومه سرورا عظيما وأعجبوا من الغلات التى جلبها البحارة معهم .

الفصل السابع

رحلات كلمبس التالية وفسبوتشى (VESPUCCI) وكبرال (CABRAL) و بلبو (BALBOA)

بعد أن قضى كلمبس وقتا قصيرا فى بالس واشبيلية طلب إليه أن يذهب إلى البلاط الملكى ببرشلونه ، ذلك لأن أخبار كشفه ملأت العاهلين سرورا ودهشة . فأمر أن يستعد لسفرة أخرى ليوطد دعائم الملك فى البلاد التى كشفها . نعم أن القوم ظنوا أن هذه الأراضى الجديدة من أملاك الخان العظيم ولكنهم كانوا يرون من حقهم الاستيلاء على أراضى غير المسيحيين لينصروا أهلها ، ودفعا للشك طلب من البابا أن يرخص بما طلبته أسبانيا وقد لبى الأمر لأنه كان ينظر إلى ملك اسبانيا وملكتها كأنهما عماد النصرانية ، ولكى يمنع الاشتباك مع البرتغال فى القتال أصدر أمرا فى مايو سنة ١٤٩٣ بأن البلاد التى تقع شرقى خط وهمى من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى وعلى بعد ١٠٠ فرسخ غربى جزائر ازور وجزائر فرد تكون ملكا للاسبان وتلك التى تقع فى شرقى هذا الخط تكون ملكا للبرتغال ولولم يغير هذا الخط فيما بعد لاستولت اسبانيا على أمريكا بأسرها واستولت البرتغال على ماليزيا وبابو واستراليا ولكن البرتغال عارضت فى ذلك فعدل البابا سنة ١٤٩٤ موضع هذا الخط وجعله على بعد ٢٨٠ فرسخا غربى جزائر فرد .

وفى السفرة الثانية أعد كلمبس أسطولا أكبر من اثنتى عشر سفينه و بعض سفن صغيرة وكان عدد رجاله ١٥٠٠ من بينهم صناع مهرة ومبشرون وكان مع رجاله بذور وآلات زراعية . ولقد أقلع الأسطول فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٣ وكان الجو ملائما والرحلة موفقة ووصل إلى جزيرة أسماها دمنيكا وأخيرا وصل إلى هسبنيولا ثانية ولكنه وجد أن الحامية التى تركها بها قد أبيدت عن آخرها بسبب مناوأتهم الأهالى وكرههم لهم فأنزل حامية أخرى بهذه الجزيرة للبحث عن الذهب ولكنها باءت بالفشل . أما كلمبس فسار للبحث عن أرض جديدة وكشف جزيرة جميكا ثم عاد للحامية واستعمل القسوة فى حكمه المستعمرة التى أسسها فبالغ أعداؤه فى إشاعة قسوته واستعمل هؤلاء نفوذهم عند الملك والملكة فعاد إلى اسبانيا تاركا أخاه ليحل محله فى الحكم .

وفى سنة ١٤٩٨ رخص له بالسفر مرة ثالثة فقسم سفنه قسمين وأرسل قسما منها مباشرة إلى هسبنيولا والقسم الآخر سار صوب الجنوب على أمل كشف أرض جديدة ؛ وكان الجو شديد الحرارة وطالت الرحلة وكاد الماء يغيض والقوت ينفد ولكن أحد البحارة أبصر جبالا مرتفعة فتشجع الرجال واستمروا وما لبثوا أن وصلوا إلى جزيرة أسماها كلمبس ترنيداد ولقد وجد بالجزيرة حقولا نضرة وحدائق غلبا ذكرته بحدائق بلنسية على أن الرحلة استمرت حتى وصلت إلى شاطىء أمريكا الجنوبية ولكنه ظنه مجموعة جزائر أخرى كبيرة ومر على خليج أرنوكو وأدهشته كمية المياه

العذبة المتدفقة فى البحر عنده ثم عاد إلى هسبنيولا مقتنعا بأنه كان بالقرب من قارة عظيمة .

وعند ما وصل إلى هسبنيولا وجد نيران الثورة مشتعلة بين المستعمرين وقد قضى أشهرا فى استتباب النظام وقد رجع من هؤلاء مالم يرقه طريقته فى الحكم.

وفى سنة ١٥٠٠ استصدر أعداؤه أمرا بإرجاعه إلى اسبانيا مكبلا بالسلاسل ثم أفرج عنه ، وفى سنة ١٥٠٢ سمح له الملك والملكة بأن يقوم بسفرة رابعة يبحث فيها عن طريق بحرى لمستعمرات البرتغال فى آسيا . وفى أثناء طريقه زار كثيرا من الجزائر التى كشفها من قبل وقد سافر صوب الشرق وكشف هندوراس . ولقد أدهشته أمارات الحضارة البادية بين السكان فكانوا يستعملون فئوسا من النحاس وأوانى خزفية حسنة الصنع وعباءات من القطن وكميات كبيرة من بذور الكاكاو التى كانوا يقتاتون بها ويستعملونها واسطة للتعامل . ولقد سار كلمبس حذاء الشاطىء حتى وصل درين ولكنه لم يكتشف الثغرة التى كان يريدها . وعند ما عاد إلى كوبا صادف متاعب أخرى وفى سنة ١٥٠٤ عاد إلى أسبانيا وقد وجد أن مناصرته الملكة ايزابلا قد قضى نحبها فقضى الباقية من حياته فقيرا معدما ومات سنة ١٥٠٦ .

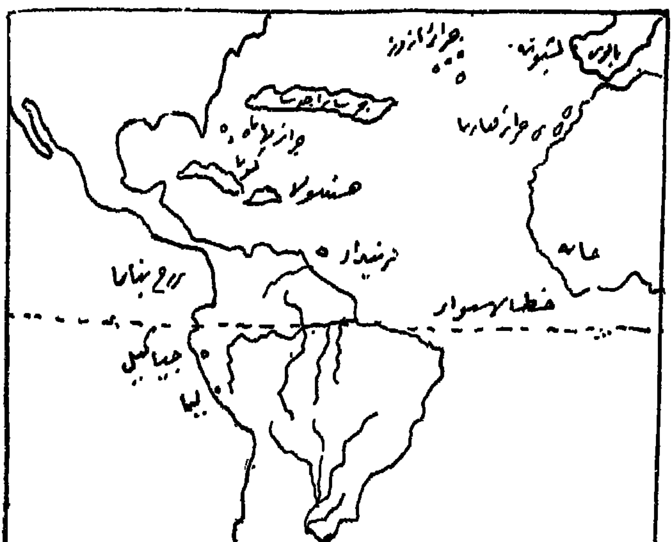
وبعد سفرة كلمبس الثالثة قام كثير من الأسبان بإضافة تفاصيل كثيرة عن جزائر الهند الغربية ولم ينقض وقت طويل حتى تكشفت أن الأرض التى نزل إليها كلمبس كانت فى الواقع الدنيا الجديدة وليست أسيا .

ومن هولاء الكاشفين شخص يدعى أمريجو فسبوشى : ففى سنة

١٤٩٧ — ١٤٩٨ سار جنوبا حذاء شاطىء أمريكا الجنوبى ثم شمالا إزاء الشاطىء الشرقى لأرض تسمى الآن الولايات المتحدة وفى السنة التالية سافر صوب الغرب ووصل إلى شاطىء البرازيل . وفى السنة التالية سافر برتغالى آخر يدعى كبرال إلى الشرق فدفعته الرياح التجارية إلى المحيط الأطلسى ووصل إلى شاطىء البرازيل واستولى عليها باسم البرتغال . ثم دخل فسوشى فى خدمة البرتغال وفى سنة ١٥٠١—١٥٠٢ كشف شاطىء أمريكا الجنوبى ووصل إلى نقطة تبعد شمالا عن رأس هرن بنحو ١٥٠٠ ميل ومن ثم ظهرت ضخامة القارة الجنوبية الجديدة ولو أن شاطئها الغربى لم يكشف بعد . وقد أثار وصف فسبوشى رحلته أهتماما عظيما حتى قال أحد الكتاب : بل أن أمريجوفسبوشى كشف ربع الدنيا الجديدة فيجب أن تحمل أسمه وعلى كر الأيام أطلق هذا الأسم على الدنيا الجديد ، ولو أنه فى ذلك الوقت لم يدر بخلد القوم أنها كتلة أرضية واحدة .

ولقد حاول الأسبانيون مراراً أن يستعمروا أمريكا الوسطى ولكنهم فشلوا لسوء إدارة قوادهم وللأمراض المتفشية بها وعند مارجع الأحياء من إحدى التجريدات إلى هسبنيولا حملوا على العودة . وقد وجد من العائدين رجل اختبأ فى أحد البراميل بين حمولة المركب وكان مدينا اراد الهروب من مدينته . وكان هذا المفلس هو بلباو الذى ظهر فيما بعد أنه الرجل الوحيد الذى أظهر كفاءة فى استعمار الأرض الأصلية . وعند ما كشف أمر بلباو استشاط الربان غضبا وصمم على تركه فى الجزيرة لولا تدخل البحارة . وعند ما نزل البحارة إلى برزخ درين (بناما) كان بلباو

قائد المستعمرين فوضع الأمور فى نصابها بين الأهالى وكسب احترامهم كسبا مدهشا . ولقد سمع منهم بوجود محيط عظيم فى الجهة الأخرى من البرزخ ومملكة عظيمة غنية بثروتها المعدنية فى الجنوب . وفى ذات يوم تسلق جبلا مرتفعا وسط البرزخ فظهر له محيط عظيم فكان أول أوربى كشف المحيط الهادى سنة ١٥١٣ .فصمم بلباو على صنع سفن تمخر عباب هذا المحيط فأرسلت اليه مواد البناء من جزائر الهند الغربية ومن أسبانيا فى الشاطىء الشرقى للبرزخ فنقلها إلى الشاطىء الغربى . و بينما كان على أهبة إتمام المعدات قتله خلسة أولئك الذين حقدوا عليه نجاحه وترك لغيره جنى ثمار كفاحه وشجاعته .



الأسبان بالدنيا

الفصل الثامن

آل كابت (The Cabots) ومبدأ البحث

عن الممر الشمالى الغربى

عندما وصلت أنباء سفرات كلبس إلى انجلترة لم يكن هناك رجل انجليزى أكثر أسفا من هنرى السابع لأنه لم ينتهز فرصة مساعدة ذلك البحار العظيم . ومن ثم كان سبب تحمسه لمساعدة بحار من أهل جنوه يدعى جون كابت ، وكان من تجار البندقية ولكنه استقر به المقام مع أسرته فى برستل مدة حكم ادوارد الرابع . وعند ما كان فى خدمة التجار البنادقة على شاطىء بحر المشرق اتصل بالتجار الذين كانو يرتادون شواطىء آسيا الصغرى وسوريا للحصول على غلات الشرق الغنية ، واستعلم منهم عن مصادر بضائعهم ولكنه كانو يجيبونه بأنه تناولتها أيد كثير قبل أن تصلهم من الشرق الأقصى . ولما كان كابت ماهرا فى معرفة الخرائط والمصورات المعلومة فى تلك الأيام وكان يؤمن باستدارة الأرض صمم على أن ينتهز الفرصة عند ما تسنح له للوصول إلى شاطىء آسيا عن طريق شمالى المحيط الأطلنطى . ولقد كان يعلم أن انجلترة لا تستطيع الاستغناء عن الشرق وثروته واستشف أخلاق هنرى السابع واعتقد أنه على تمام الاستعداد لمد كل مساعدة للحصول على هذه الثروة . وكان كابت يعلم أنه لو استطاع أن يجد

طريقا إلى الشرق مباشرة لاقتصد المشاق الكثيرة من نقل هذه العلات بالسفن والقوافل و بذلك تنقص قيمة نقل هذه البضائع الانجليزية ، لذلك طلب إلى الملك مساعدته فى تنفيذمشروعه فاجابه إلى طلبه وأصدر مرسوما بذلك فى سنة ١٤٩٦ . وقد نص هذا المرسوم على الترخيص إلى كابت وأسرته بأن يسافروا فى كل الجهات والأقطار والبحار شرقا وغربا وشمالا للبحث عن أقاليم لم تكشف بعد ، ولم ينص فى الخطاب شىء عن الجنوب، لأن هنرى لم يكن يرى من المناسب أن يتدخل فى الأرض التى كان المفهوم أنها من اختصاص الأسبان والبرتغاليين .

ورخص لآل كابت باستعمار الأرض التى لم تكشف من قبل باسم الملك وكل الثروة التى يحصل عليها يكون خمسها لملك انجلتره والباقى لهم . على أن يعفوا من ضرائب الموانى الانجليزية التى تجبى عادة من التجار . وكل من يريد الاتجار مع الأرض التى لم تكشف يجب أن يطلب الترخيص من آل كابت

ولقد بدأت السفرة سنة ١٤٩٧ فى سفينة صغيرة بها ١٨ بحاراً . وقد أقلع الكاشف من جنوبى ايرلنده فى الأطلنطى متجها صوب الشمال ، وعندما وصل إلى خطعرض معلوم اتجه صوب الغرب ، ولايعرف المكان بالضبط من أمريكا التى رست عنده سفنه ، ومن المحتمل أن يكون بقربه من رأس برتن فى خليج سنت لورنس ، ثم ارتاد بعد ذلك عدة أميال من الساحل ، وأدهشته كثرة الأسماك فى هذه الجهات ووجد آثار العمران .

ولكن لما كان رجاله قليلين وقلت مئونته اضطر للعودة ووصل برستل بعد مضى ثلاثة شهور.

ومما لاشك فيه أنه كان يقصد برحلته مجرد استطلاع مبدئى ، كما أنه لامراء فى أنه اعتقد بأنه وصل إلى شاطىء أسيا . ولقد سر الملك هنرى من تقريره ومنحه هبة من المال وقدر له معاشا سنويا . وفى أثناء ذلك أخذ يعد العدة للقيام برحلة أخرى وأغرى الكثير من الرجال للانضمام اليه .

وفى الرحلة الثانية قام كابت بعدة سفن محمله بمختلف البضائع الانجليزية. وكان همه العثور على سيبانجو (أو اليابان) التى وصفها ماركو پولو والعثور على منبع ثروة الشرق فقام فى مايو سنة ١٤٩٨ ولكنه لم يعلم شيء على التحقق عما حصل فى هذه الرحلة . على أن مما لاشك فيه أنه وصل إلى الشاطىء الأمريكى وسار صوب الجنوب بحذاء الساحل عله يصل إلى سبانجو التى يعرف أنها فى العروض الدفيئة . ولما مرت الأيام تلو الأيام. عرف كابت أن الساحل الذى يسير بحذائه ليس فى آسيا بل حافة قارة جديدة . ولما فقد الأمل فى العثور على طريق يجتاز منه هذه القارة عاد ولم يناصره الملك لأنه استاء منه لعدم عثوره على أرض الشرق . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الملك لم يرغب فى إثارة مشا كل مع الأسبان الذين. رأى أن يحفظ الود بينه و بينهم والذين غضبوا من أى اعتداء على أراض. أدعوها لأنفسهم . على أن كابت أدى خدمات عظيمه لانجلتره وكان بدون. شك أول أوربى زار شواطىء أمريكا الشمالية بعد زمن الفيكنج .

وكان لجون كابت ولد يدعى سبستيان وقد سافر سنة ١٤٩٩ سائرا فى طريق والده ولكنه لسوء الحظ كان ولدا مغرورا ولم نزد المعلومات التى أدلى بها عن معلومات والده وعلم فيما بعد أن بعض التفاصيل التى زادها كانت غير صحيحة . ويخيل الينا أنه سافر ومعه سفينتان بهما ٣٠٠ بحار وعند ما وصل إلى أمريكا اتجه صوب الشمال ووجدا كتلا ثلجيا عظيمة الحجم طافية على الماء ، ووجد أرضا أذابت حرارة الشمس فى يوليو الثلج من فوقها . وكان الكاشف يبحث عن طريق شمالى أمريكا إلى كاثاى . ولكن صعوبة إيجاد طريق بين الثلج وتمرد البحارة اضطره لتغيير طريقه فاتجه صوب الجنوب وسار حتى وصل إلى الساحل الذى سمى فيما بعد فرجنيا ، ويظن البعض أنه وصل فلوريدا . ومهما يكن الحال فان رحلته كانت لها قيمتها لأن اعتقاده بوجود الممر الشمالى الغربى كان رأيا أتبعه غيره وكان أساسا لعمل المكتشفين المتأخرين مثل فوبشر وديفس وهدسن . هذا إلى أن سياحاته وسياحات والده كانت أساسا لحق انجلترة فيما بعد فى الأراضى الشرقية لشاطىء أمريكا الشمالية قبل أن ترسل حكومة أسبانيا ملاحيها من جزائر الهند الغربية إلى الشمال ليسبقوا الانجليز للسيطرة على أمريكا الشمالية .

الفصل التاسع

فِردِنَنْد مجّلان وأول سفرة حول الدنيا

خطط خلفاء كلمبس شاطىء البرازيل ، واستعمر الألمان برزخ بنما ، وتمكن أسبانى من رؤية المحيط الهادى العظيم . وتساءل القوم عما إذا كان فى الاستطاعة الوصول إلى هذا المحيط بكشف مجرى مائى يصل ما بينه وبين المحيط الأطلسى . ولقد كان لمجلان الفضل الأول فى كشف هذا المجرى .

ولد مجلان بالبرتغال سنة ١٤٨٠ من أسرة عريقه وفى سن مبكرة استخدمته الملكة وصيفا لها ، ودخل فيما بعد فى خدمة الملك منويل ، وكان هذا الملك هو الذى أرسل فاسكو داجاما فى رحلته الموفقة نحو الشرق وقد أرسله الملك بعد ذلك فى رحلات كثيرة واحدة فى أثر الأخرى . فبعث ذلك شعور قوى بين المخاطرين للسفر لكشف أراضى جديدة ومن بين هؤلاء كان مجلان : وفى سنه ١٥٠٤ انضم إلى ذلك المدا الذى عين نائبا للملك فى المستعمرات الجديدة فسار الأسطول وساح حول رأس الرجا الصالح ثم حول شاطىء أفريقية الشرقى ثم عبر المحيط الهندى إلى جنوبى الهند وفى سنة ١٥٠٩ سار إلى سومطرة وجزائر الملقا ثم رجع ثانية إلى الهند ودخل فى خدمة ألبوكرك حاكم الهند . وفى سنة ١٥١١ قام برحلة أخرى وهو على رأسها إلى ملقا وليس من المؤكد إذا كان قد

وصل إلى جزائر البهار . وفى سنة ١٥١٢ عاد إلى البرتغال ولكن لم يستقر به المقام إذ اشترك فى حرب على المغاربة ولكنه اتهم بعد قليل بالاتجار معهم مع مخالفة هذا للقوانين الموضوعة . وكان ذلك سبب نزاعه مع الملك ، وقد بدأ منذ ذلك الحين التحول فى خطته . وكان قد عمل فكره طويلا فى امكان الوصول إلى جزائر الملقا إذا ماسافر صوب الغرب فى المحيط الأطلسى للعثور على مضيق يوصله إلى المحيط الهادى . فقدم مشروعه إلى ملك البرتغال ولكنه رفض الاصغاء اليه فحذا حذو كلمبس من قبله ودخل فى خدمة ملك أسبانيا شارلس الخامس وتقدم اليه بمشروعه . وفى سنة ١٥١٨ بعد تأخير طويل اتفق معه على أن يمده بخمس سفن و١٣٥ بحارا ومئونة تكفيهم سنتين على أن تحاول البعثة ارتياد أراضى تملكها البرتغال ، وأن يستولى مجلان ورفاقه على جزء من عشرين من الأرباح ونصيب من التجارة مع الموانى الجديدة وأن يكونوا حكاما للاقاليم الجديدة . وأخيرا أعدت السفن مع تعليمات وثيقة من مقتضاها أن تكون كل السفن متصلة ببعضها بعض فى أثناء الرحلة . وكان البحارة خليطا من أمم مختلفة من بينهم الأسبان والبرتغاليين والألمان والفرنسيين واليونانيين والملايين والعبيد ورجل انجليزى واحد .

وقد بدأوا رحلتهم ولكن الكثير من هؤلاء البحارة وعدوا أعداء مجلان بأن يخرجوا عليه بعد قليل من الرحلة . وفى سنة ١٥١٩ غادر شاطىء أسبانيا وابتدأت الرحلة العظيمة . وقبل أن يبرح مجلان كتب وصيته وسلم لملك أسبانيا تقريرا عما ينوى القيام به وقد بين فى هذا التقرير الخط الذى

يفصل أملاك أسبانيا والبرتغال فى جزائر الهند الشرقية لأن الخط الذى،
عينه البابا لم يبين ماذا تكون الحال لو اجتمع الأسبان والبرتغال فى الجانب
الآخر من الكرة الأرضية . وقد أمّل مجلان أن يبرهن أن جزائر ملقا
تكون ملكا لملك أسبانيا . وسارت السفينة التى عقد له لواؤها من أسبانيا
وتبعها سائر الأسطول إلى تِيزيف ومن ثم أبحر الفلك صوب الجنوب الغربى
عبر المحيط الاطلنطى . وكان الجو مكفهراً وعصفت الزعازع والأعاصير.
فبكى البحارة حتى إذا ما دب اليأس فى نفوسهم أرشدتهم العناية الربانية.
وأضاءت لهم سبيل الخلاص ووصلوا إلى شاطىء أمريكا الجنوبية بالقرب.
من مدينة بِرنمبُوكُو (الجديدة) وصار الفلك صوب الجنوب الغربى.
بحذاء الشاطىء رغبة فى الوصول إلى المجرى المائى الذى كان يعتقد مجلان.
بوجوده وكان فى مكنتهم مدة ماالحصول على الفواكه الطازجة وغيرها من.
المئونة من سكان الشاطىء وأخيراً فى سنة ١٥٠٢ وصلوا إلى مصب نهر.
دى لاپلاَتا وقد ظنوه المجرى المائى المنتظر ولكن بعد بحث قليل اتضح
لهم أن الرأى خاطىء فاتجه الأسطول صوب الجنوب فى جو مكفهر عاصف.
حتى إذا ما وصلوا إلى خط عرض ٤٩ ½ جنوباً رسا فى خليج سَنت.
چوليان . وقد كان البحارة بالسفن الأخرى منذ مبدأ رحلتهم يهددون.
بشق عصا الطاعة على ربانهم لأنهم كانوا يخشون أخطار الرحلة
ولكن مجلان المملوء حمية وشجاعة وعزماً لم يأبه بهم وأخيراً شبت الثورة.
فى يوم عيد الفصح فاحتل إثنان من ربان سفينتيه سفينة أخرى وحبسوا
ربانها ، فأرسل مجلان أحد ضباطه ومعه بعض البحارة إلى السفينة التى.

بها رؤساء الثوار فقتل أحد الضباط الثائرين وهكذا قضى مجلان بسرعة على الثورة ، ولقد قضت السفن شهرين فى سنت چوليان لم تر فى أثنائهما أية إمارة للحياة على شواطىء بتاجونيا الجرداء . وفى إحدى الأيام رأوا رجلا طويل القامة ضخم الجثة يرقص ويحثو الرى على رأسه فاستطاع مجلان أن يقنع هذا الرجل على الذهاب معه إلى سفينته (ولقد بلغ من طول قامة هذا الرجل أن الرجل العادى يصل حتى وسطه ، وكان وجهه عريضاً مغطى بطلاء أحمر وعيناه مطليتان باللون الأصفر ورسم على صدره صورة لقلبين . وقد ارتدى لباسا من جلود الحيوان مخيطة بعضها مع بعض حياطة متقنة) .

وعند حلول فصل الربيع أرسل مجلان سِرّاوُ (Cerrao) أحد زملائه المخلصين فى السفينة للبحث عن الممر الجنوبى فوجد مصبا متسعا لنهر فصرف بعضا من وقته فى صيد عجول البحر ، ولكن قامت زوبعة أتت على سفينته واستهدف لخطر عظيم لولا أن أحد البحارة استطاع أن يبحر به على رمث إلى مجلان الذى جاء ونجاهم من موت محقق . وقبل أن يبحر مجلان من سنت چوليان فى ٢٤ أغسطس سنة ١٥٢٠ ترك ثائرين على الشاطىء بعد أن قتل رئيس العصابة . وقد أعطاهما بعض الزاد ولكن لم يسمع عنهما شىء فيما بعد ولولا حزم مجلان هذا ما استطاع أن يلم شعثه ويحسن قيادة رجاله .

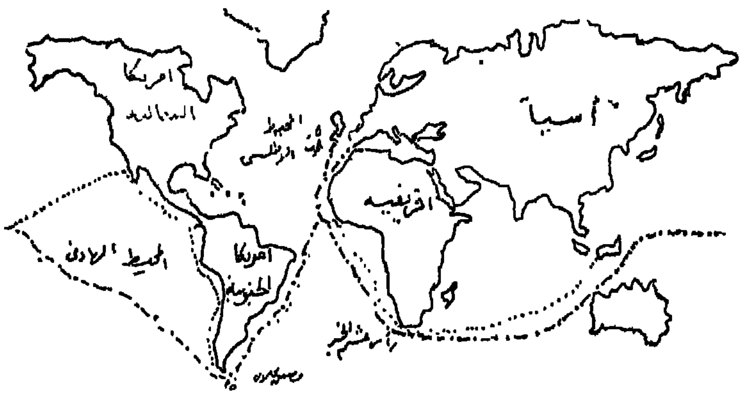
وفى ٢١ اكتوبر وصل الرحالة إلى المجرى المائى الذى كان يبحث عنه ولكن اجتيازه كان صعبا لأنه كان كثير التعرج . وفى مبدأ الرحلة

أخذ بعض البحارة يتذمر و يضيق ذرعاً بالعمل ، ونكصت إحدى السفن على عقبيها وعادت أدراجها إلى أسبانيا . وكان تحف بالشاطىء جبال مرتفعة وجبال تنزلق منها كتل ثلجية على الجوانب ، وفى سفوحها الجنوبية أرض بلقع كانت عليها نيران مشتعلة ولذلك سميت تييرّا دلفوبجو (أرض النار) .

وفى ٢٨ نوفمبر وصل البحارة إلى المنفذ الغربى للمضيق ودخلت السفن البحر الجنوبى الذى أطل عليه بِلْبَوا من قبل ، ثم أقامت السفن صوب الشمال والشمال الشرقى وأخذت تجوب البحار ثلاثة أشهر أو أربعة بدون أن تصادف من الأرض إلا جزيرتين جرداويين ، وطبعاً لم يكن لدى البحارة علم بطول الرحلة أمامهم وكلما طالت ازدادت متاعبهم . وكانوا يأكلون البسكويت الذى أصبح دقيقا ، أكل الدود قوامه ، وحتى أكلوا الجلود التى كانت مستعملة حبالا للسفينة ، وأكلوا نشارة الخشب والفيران التى دفعوا ثمنا غاليا لها وانتشر المرض بينهم ومات أكثرهم وبعد ٩٩ يوما وصل مجلان إلى جزائر لاردون وكان سكانها فقراء ولكنهم أذكياء ولصوص . ولذلك سميت جزائر اللصوص . ثم وصلت السفينة إلى إحدى جزائر الفليبين وصرفت وقتا فى ارتياد هذه الجزائر . وقد ظهر السكان بمظهر الصداقة وتنصر الكثير منهم غير أنه لسوء الحظ نشبت معركة بين أتباع مجلان وأحد الملوك الوطنيين فقتل فيها مجلان وقد حزن البحارة لفقد قائدهم الذين كانوا يحبونه و يعجبون من شجاعته وقد حرم مجلان من إكمال رحلته حول العالم.

واستمرت سفينتان من فلك إلى جزائر التوابل فاستولى البرتغاليون

على إحداها واستمرت السفينة الأخرى وبها ربع بحارتها فى رحلتها حول أفريقية حتى وصلت إلى وطنهـا . وكانت الرحلة شاقة وطويلة وخطرة فالرياح كانت تعاكسهم فى البحر وكانت تصطخب أمواجه وانتشر



المرض بينهم وضايقهم طول الرحلة الذى وقد اضطروا أخيراً إلى أن يرسوا بسفينتهم فى جزائر رأس ڤِرد التى كانت ملكا لخصومهم البرتغاليين الذين أسروا البحارة ولم يفرجوا إلا عن ثمانية عشر وصلوا أحياء إلى أسبانيـا لينبئوا أهلها بأهم عمل فى تاريخ الـكشف الجغرافى .

الفصل العاشر

(كرتيس Cortes وكشف مكسكو)

عند ما كان مجلان يعد العدة ويتأهب لخوض غمار المحيط الهادى كانت البعثات الأسبانية تقوم فى أثر بعضها بعض من كوبا إلى سواحل أمريكا الوسطى والمكسيك . فلقد كشفت فلوريدا سنة ١٥١٣ وكانوا يعتقدون أن أرضها قريبة جداً من أرض الخان العظيم ، وأن الأسبان إذا ارتادوا الأراضى وراءها سيصلون إلى أرض هذا العاهل العظيم . ففى سنة ١٥١٧ حل قرطبة (Cordova) وهو أحد أتباع كلمبس بساحل يُوكَتَان وأدهشه كما أدهش كلمبس من قبله رقى الحضارة وأماراتها بين الأهلين ، على أنه عندما حاول النزول إلى البر قاومه الأهالى ووقفوا فى وجهه سداً منيعاً فعاد أدراجه إلى كوبا . وفى رحلة أخرى بعد ذلك بوقت قصير استطاع أن يكشف جزءاً من الساحل . ولكن كان لكرتيس (Cortes) الفضل فى إماطة اللثام للعالم عن عجائب المكسيك . وكان كرتيس هذا كاشفا أسبانيا وجنديا وقد ولد فى سنة ١٤٨٥ أى السنة السابقة لرحلة دِياز حول رأس الرجاء الصالح . وكان قد عزم على دراسة القانون ولكنه سرعان ما أبدى رغبته فى حياة النشاط والمخاطرة : ففى سنة ١٥٠٤ قام إلى هسبنيولا واشترك فيما بعد فى غزو كوبا نهائيا وهذه مع هسبنيولا وجميكا كانت كل مستعمرات أسبانيا فى الدنيا الجديدة فى ذلك الوقت . وفى سنة ١٥١٩ صحت النية على إرسال تجريدة تحت قيادته

إلى يوكتان لإنقاذ بعض أسرى الأسبان هناك ومحاولة إنشاء مستعمراً فيها . على أنه قبل القيام بحملته تشاجر مع حاكم كوبا وترك الجزيرة معتقدة أنه إذا عاد إليها فاشلا كان نصيبه الفضيحة وقد يكون الموت . وعندما نزل إلى يوكتان قاتل الأهالى واستسلمت له المستعمرة . وبعد أربعة أيام وصلت سفينة مياهسن جوان دَ أللوا San goen de Allua ساحل المكسيك فجاء اليه بعض الأهالى فى قواربهم وسألوه عما إذا كان يزمع الإقامة مع رجاله بأرضهم فأخبرهم بأنه سينزل مع رجاله إلى البر . وعندما نزلوا ساعدهم الأهالى على إقامة معسكر لهم على الشاطىء وأظهروا لهم كل أمارات الود ، وعما قليل جاءهم سفير من منتزوما Montezuma ملك الاقليم العظيم الذى كان يقطن العاصمة على الهضبة . وقد دهش السفراء عندما علموا أن كرتيس قادم من أقوى ملوك الارض ، على أنهم قدموا للاسبانيين عباءات مصنوعة من القطن و بعض المنسوجات الدقيقة ، وحلى من الذهب ، وقدم لهم كرتيس أريكة و بعض حلى من حب الزجاج ، واستعرض أمامهم فروسية جنوده ، وإطلاق المدافع ، ودهش الاسبان عند ما رأوا السفراء المكسيكيين مشتغلين برسم المناظر التى رأوها ٠

وأخيرا سافر هؤلاء لأخبار ملكهم بما رأوا واستطلاع رأيه فى طلب الأسبان مقابلته . ولما كان منتزوما (الذى كان يحترمه الأهالى) جبانا بطبيعته خشى أن يحضر الغرباء إلى وطنه . وكان يعتقد كغيره من سائر أتباعه أن كرتيس ما هو إلا إله يقطن أرضهم وهجرها للذهاب شرقا معلنا لهم أنه سيعود اليهم مرة ثانية فزاد الملك فى هداياه إلى الأسبان وأرسل اليهم فيها

أرسل شمساً مصنوعة من الذهب محلاة بزينة فاخرة ، وقمراً أكبر من الفضة وطلب إلى السفراء أن يقنعوا الأسبان بأن الطريق وعر ولا يمكنهم اجتيازه . ولكن كرتيس لم يكن بالرجل الذى يثنيه ذلك عن عزمه هذا إلى أنه اعتقد من الهدايا التى وصلت اليه أن الاقليم عظيم الغنى والثروة ، وصمم على زيارة العاصمة . ولقد أخذ رجاله يثنونه من عزمه ويحضونه على العودة إلى كوبا ولكنه أقنعهم بالعدول عن رأيهم . هذا إلى أن الهنود القاطنين على الساحل شكوا إلى كرتيس من ظلم جباة الضرائب وتوسلوا اليه أن ينقذهم من العسف والجور اللاحق بهم . وقبل أن يتأهب كرتيس للعمل نقل معسكره إلى بقعة شمالية أحسن مناخا ، وكانت هذه مستعمرة ڤيرا كروز (أو الصليب الحق) . ولقد اندلع لهيب الثروة بين رجاله فعمد إلى حيلة طارق بن زياد فأحرق سفنه عدا واحدة منها حتى يقطع عليهم خط الرجعة ويخضعهم لأمره ، ثم خطب فيهم وأطنب فى وصف الغنائم التى سيحصلون عليها فأثار ذلك حماسهم ولم ينته الاجتماع إلا والكل مصمم على الذهاب إلى العاصمة . ولم يكن معه عند القيام سوى ١٥٠ رجلا من ٥٠٠ إذ مات الباقى متؤثرا بجراحه أو من الأمراض ؛ و بعد أن ترك الساحل غير الصحى سار إلى الهضبة التى ترتفع أكثر من ٦٠٠٠ قدم عن سطح البحر . وكان الجو أكثر لطفا والأشجار تحاكى أشجار أوربا . وفى أثناء رحلته هذه كان يخبر الأهالى بأنه قادم من أعظم ملك فى العالم ويحضهم على ترك عبادة الأصنام وتضحية بنى آدم : ووصل الأسبان إلى بلدان مشيدة منازلها تشييدا فخما ، وكان يحكمها نواب من منتزوما . وقد رفض أغلب هؤلاء طلب

المستعمرين للذهب ولم يصدقوا أن هناك ملوكا أكبر من ملكهم . واضطر كرتيس لمحاربة بعض قبائل الهنود وكان نجاحه سببا فى ذعر ملك المكسيك الذى طارت نفسه شعاعا من تقدم هؤلاء الأغراب ، فأكثر من إرسال الهدايا ووعد بأن يدفع ضريبة سنوية لملك أسبانيا إذا امتنع كرتيس عن دخول عاصمة ملكه ولكن الغازى أهمل طلبه .

وفى هذا الوقت ثار بركان بوبو كتيتيل Popocatapetel وكان الأهالى يعتقدون أن هذا لا يقع إلا عند الإنذار بخطر داهم فازداد رعبهم . ولقد أرسل كرتيس بعض رجاله لتسلق الجبل وإخطاره بما يرونه ولقد كان أمرا غريبا أن يخاطر هؤلاء بحياتهم فى عمل كهذا مع أنه أمامهم ما هو أخطر منه ولكنها روح المغامرة هى التى حدت بهم إلى ارتكاب الأهوال فى سبيل الفتح والغزو .

وبعد ثلاثة أشهر من القيام من فيرا كروز وصل هؤلاء المغامرون إلى نقطة أشرفوا منها على سهل مكسكو . وكان المنظر الذى رأوه أجمل وأروع ما وقع عليه عين الإنسان : ففى هذا الوادى كانت المياه متفجرة والأشجار ملتفة الأغصان ، والسهول نضرة بالمزروعات ، والمدن الجميلة منبثة ، والحدائق الغناء منتشرة ، وفى وسط الوادى كانت البحيرات الجميلة ، التى على شواطئها المنازل والقرى وفى وسط السهل قامت مدينة مكسكو الجميلة بمناراتها وهيا كلها الهرمية الشكل تركض على صدر المياه . وسارت الحملة فى الطرق المعبدة بين مجارى المياه حتى وصلت إلى مقر العاهل منتزوما . فاستقبلهم ومنحهم الهدايا العظيمة وأظهر رغبة فى إكرامهم ، ولكن بعد بعض أيام لمح القائد

الأسبانى عين الغدر بادية من الملك فاحتال عليه حتى أسره وحمله رهينة إلى معسكره ، فاضطر الملك بأن يأمر رعيته بالخضوع لكرتيس نائب ملك أسبانيا الذي أصبح ملكهم الشرعى ، وأمر بجمع الخراج لتقديمه للفاتحين . على أنه رغم كل محاولة لتنصير منتزوما رفض أن يقلع عن وثنيته فأثار ذلك غضب كرتيس وأمر بهدم الأصنام فى الهيا كل وصلى الصلاة الكاثوليكية بها ، بيد أن هذه القسوة أثارت غضب الأهالى فأخذ كرتيس يمعن فى الأخطار التى جلبها على نفسه من جراء طيشه ؛ هذا إلى أنه سمع أن بعض رجال من خصومه غزا الشاطىء ، ومن ثم صمم على العودة لمحاربتهم . أما بقية قصة كرتيس وعودته إلى مكسكو لقمع ثورة هناك فالتاريخ كفيل بها . فى ثناياه نقرأ له بحثا فى قوة الأسبان وضعفهم فى أساليب حكمهم أرض الدنيا الجديدة . على أنهم بشجاعتهم الفائقة وجرأتهم النادرة وصرامتهم وقسوتهم فى بعض الأحيان استطاعوا أن يؤسسوا فى نهاية الأمر فى المكسيك والبلاد المجاورة أسبانيا جديدة درت على الغزاة الخير الكثير .

وفى آخريات أيام كرتيس قام بعدة رحلات بين أوروبا والمكسيك ومنها أرسل حملات كشفية أخرى عديدة فى كثير من الجهات حتى وصلت إحداها فى سنة ١٥٣٣ إلى شواطىء كاليفورنيا .

الفصل الحادى عشر

بيزارو (Pizarro) وغزو بيرو (Peru)

إن قصة نجاح كرتيس ورجاله فى غزو المكسيك حملت رجالا عديدين من الأسبان على الهجرة إلى الدنيا الجديدة فقصد الكثير منهم إلى مضيق پنما ، وبعضهم كان برفقة بلبـاو فى رحلته الشهيرة التى أشرف منها على المحيط الهادى . ولقد سمع بلباو الهنود الذين يقطنون هذه الجهة يتكلمون عن أقاليم جنوبية تنتج الذهب ، ولما لم يستطع بلباو التقدم بكشفه عن هذه الجهات أخذ غيره العمل على عاتقه ، وكان الرجل الذى نجح منهم فى ارتياد هذا الاقليم هو فرنشسكو پيزارو : وهو من أهـل أسبانيا وكان فى مبدأ حياته راعيا للخنازير ، ولـكن قصص الدنيا الجديدة والهند أثارت كامن نشاطه وحماسته كغيره من سكان اشبيليه ، وعلى كر الزمن أصبح من مساعدى بلباو عند محاولته استعمار دارين . وبعد أن صرف بعض الوقت هناك رحل إلى پنما فى سنة ١٥٢٤ ومعه فى سفينته بعض الرجال الذين كان همهم الحصول على الذهب ؛ وأبحر الراكب فقطع عدة فراسخ بحذاء أمريكا الجنوبية فواجهتهم أمطار شديدة وعواصف هوجاء . ولقد وجدوا الأرض مغطاة بالغابات ولم يستطيعوا اختراقها ، وقل زادهم فتنكروا لقائدهم على أنه ما انفك يتلطف معهم ويعاملهم بالحسنى ، وأخيراً أرسل بعض رجاله فى إحدى السفن لجلب القوت . أما هو وبعض الرجال الأخر فساروا فى القارة على غير هدى حتى عثروا على قرية هندية ، فى جهة ما ، اجتثت الأشجار

من حولها وسمع من سكانها عن مملكة عظيمة بعد الغابة فصمم بيزارو على النجاح ، على أن المطر والمرض أنهك قوى رجاله ولكن السفينة التى كانت أبحرت لجلب المئونة عادت وأنجدتهم ؛ وسار الجميع حول الشاطىء متجهين صوب الجنوب فألفوا الغابة تقل كثافة فصحت عزيمتهم على النزول إلى البر فصادفتهم قرية هندية كبيرة هجرها سكانها عند اقتراب الأسبان ولكن هؤلاء الهنود هاجموا الأسبان هجوما عنيفا اضطروا على أثره إلى الرجوع إلى سفينتهم التى أصابها العطب مما اضطر بيزارو إلى العودة إلى پنما لإصلاحها وفى أثناء ذلك كان زميل لبيزارو يدعى الجرو (Almagro) فى پنما فى انتظار انجاز بناء سفينة أخرى فاذا تم ذلك أقلع صوب الجنوب ليلحق ببيزارو ولكنه لم يعثر عليه وعاد بعد أن وصل إلى نقطة على بعد ٣ درجات شمالى خط الاستواء . ولقد أثار الربانان كثرة الذهب الذى حصلا عليه من الأهالى فما لبثوا أن عادوا إلى بلادهم حتى أعدا العدة لسفرة ثانية ، وقد حصلا على سفينتين و ١٦٠ رجلا بشىء من الصعوبة وعددا لا بأس به من الخيول .

ولما كان المناخ معتدلا استطاعت الحملة أن تتجاوز سريعا النقطة السابقة. ونزلت إلى البر وحصلت على مقادير أخرى من الذهب أرسلت على إحدى السفن لكى يغرى هؤلاء المخاطرون عددا آخر من البحارة للانضمام اليهم . وقد بقى بيزارد فى البر وأرسل ربان السفينة الثانية لتقلع صوب الجنوب لارتياد الشاطىء فمرت بجزيرة جالو Gallo فدهشته أمارات التمدن الكثيرة كما دهش كرتيس من قبل عند غزو مكسكو . ومما رآه ضمن غيره من الأشياء قارب كبير تسيره قلاع مصنوعة من نسج القطن و به كثير من الهنود ،

ولكن مما زاد فى دهشته أن أغلب الملابس التى كانوا يرتدونها كانت من الصوف المنسوج نسجا دقيقا و به صور للطيور والأزهار ومصبوغ بألوان زاهية . ولقد احتفظ الربان ببعض الهنود ليعلمهم اللغة الأسبانية واستمر فى سياحته حتى وصل إلى نصف درجة عرضية جنوبا ، ومن ثم عاد أدراجه إلى بيزارو . ولقد تجشم الربان وأتباعه مصاعب جمة ولكن الأخبار التى جاء بها وعودة السفينة الأخرى بالمؤن والرجال شجعت الجميع مرة ثانية ، وأخيرا أرسلت سفينة أخرى لجلب مقدار آخر من المئونة وظل القائد مع أغلب الرجال على جزيرة جالو ؛ غير أن هؤلاء أظهروا أمارات العصيان حتى إذا ما جاءتهم سفن الانقاذ تأهبوا للعودة إلى أوطانهم . وعند ذلك أظهر بيزارو عزمه وشجاعته التى اشتهر بها : فسل سيفه ورسم خطين على الرمل من الشرق إلى الغرب ثم اتجه صوب الجنوب وقال يازملائى و يامواطنى : فى هذه الجهة التعب والجوع والعرى والعواصف الكثيرة والأمطار ، وفى الجهة الأخرى الراحة والسرور . هنا تقع پيرو بثروتها وهناك پنما وفقرها فليختر كل رجل منكم ما يحلو له ، أما أنا فذاهب صوب الجنوب ، ثم عبر الخط فتبعه الربان واثنا عشر رجلا وعاد الباقى إلى پنما .

و بعد شهور وصلت سفينة أخرى بالمؤن وقام الأسبان صوب الجنوب فعبروا خط الاستواء ودخلوا ميناء جيا كيل (Guaquil) وقد لاحظوا أن الإقليم فى هذه الجهة مرصع بالمدن والقرى بين سلاسل جبال مرتفعة ارتفاعا عظيما من الشاطىء ولا تترك أمامها عما يلى الشاطىء إلا واديا صغيراً تجرى فيه أنهار قصيرة تحدث الخصب والنماء فى الأرض المحيطة بها .. وقد قدم الأهالى

للمستعمرين الفاكهة والحبوب وقطيعا من حيوان اللاما (وهى جمال أمريكية يستعملها الهنود) واستمروا صوب الجنوب حتى عرض ٩٠° جنوبا ثم عادوا إلى بنما وقد أهشتهم الغرائب التى رأوها وأخذت منهم كل مأخذ .

وفى الأشهر القليلة التى تلت ذلك زار بيزارو ملك أسبانيا وحصل منه على السلطة التى خولته القيام برحلات للاستيلاء على الممالك التي كشفها . وفى سنة ١٥٣١ أقلع للرحلة الثالثة وكانت آخر رحلاته من بنما إلى بيرو ومعه ١٨٠ رجلا وثلاثون حصاناً وعندما وصل شمال خط الاستواء بقليل نزل إلى البر بجنوده مصمما على ارتياد الساحل وسبقته السفن متجهة صوب الجنوب .

وبعد سفر طويل قابلتهم فى أثنائه حوادث كثيرة وغنموا فيها كنوزاً قيمة وصلوا إلى مصب نهر جواكيل وعلى بعد قليل من الشاطىء أقاموا بها مستعمرة بقى بها عدد من الجند . ولكن بيزارو كان مصمما على الوصول إلى أرض الإنكا (Inca) حاكم البلاد الغريبة السكان الذى سمع عنهم بيزاراو فى أثناء تجواله على الشاطىء . وأرض الإنكا تشمل الهضبة العظيمة التى تقع بين سلسلة جبال الأنديز الرئيسية والشاطىء . ولقد علم بيزارو بثروة هذا الاقليم وخصوبة أرضه ومبانيه الفخمة فصمم على أن يحذو حذو كرتيس الذى اكتسب ثروة عظيمة من مكسكو . وقد يكون قد سمع أيضا بوجود نزاع بين شخصين من الأهالى يدعى كلاهما الملك . فتأكد بيزارو من موقع العاصمة وسار صوبها ، ولكنه كلما طال السفر ظهرت أمارات الضجر والملل والخوف عند الجنود . على أنه خطب فيهم وخيرهم بكل شجاعة بين إنهاء الرحلة أو الرجوع إلى المستعمرة التى أقامها فلم يتبعه غير

تسعة من رجاله ، و بعد بضعة أيام جاء رسول من الإنكا يحمل الهدايا التى من بينها أنسجة صوفيةمنسوجة بخيوط الذهب والفضة و يؤكد له أن الحاكم مشتاق لرؤيته فى عاصمة ملكه ككسمالكا Caxmalca فى الجهة الأخرى من جبال الانذير . و بعد سياحة جمة الصعوبات استغرقت بضعة أيام أشرف على مدينة كأنها جوهرة على سفوح الجبال السوداء ولكن كان يحوطها خيام سوداء لجنود بيرو فدب عند ذلك الرعب فى نفوس الجنود الأسبان فى بادىء الأمر ولكنهم صمموا على البلوغ إلى قصدهم . أما جنود بيرو فقد أذهلتهم دروع الأسبان اللامعة وخيولهم الفارهة . وعند ما وصل ملك الإنكا الذى كان مشتاقا لرؤية هؤلاء الغرباء خاطبه مفاجأة باللغة الأسبانية قسيس أسبانى طالبا اليه أن يعتنق الديانة الكاثوليكية ولكنه لم يفهمه ورمى إلى الأرض بكتاب الصلاة الذى قدمه له القسيس فانقض عليه الأسبان وقبضوا عليه ، وكان من الممكن أن يقتلوه لولا أن پيزارو آثر أن يستبقيه أسيراً ، ولقد دب الرعب فى نفس هذا الملك وأمر أن ينزع كل الذهب الذى فى معابده وأن يقدم للاسبان ، ووعد بأن يملأ الحجرة التى سجن فيها بالذهب ، وعندما وصل الذهب قتله الأسبان فأخذ الهلع من الأهالى كل مأخذ وسلموا دون أن يبدو أية مقاومة .

وفى سنة ١٥٣٤ استولى پيزارو ورجاله على مدينة كزكو Cuzko العظيمة وسمع بنجاح هذه الحملة غيرهم من الأسبان فسافروا إلى بيرو وغزوها كلها كما غزوا شيلى و بذا أسست امبراطورية أسبانية عظيمة فى هذه الجهات من أمريكا الجنوبية .

وفى سنة ١٥٤٠ سافر أرلانّو ومعه بادىء الأمر أخو پيزارو وسار فى نهر الامزون مخترقا غابات الانديز حتى مصبه و بذا تسنى اختراق أمريكا الجنوبية من الغرب إلى الشرق .

الفصل الثانى عشر

الطرق الشمالى الشرقى — دلَوبى willoughby وتشانسلور Chancellor

لقد أوضحنا فيما سبق رغبة الانجليز فى إيجاد طريق إلى الأقطار الشرقية غير الطرق التى كانت تحت سيطرة الدول الأجنبية وهى التى حدت بالانجليز للبحث عن طريق شمالى غربى . ولكن هذه المساعى فشلت ، فوجه هؤلاء القوم أنظارهم صوب الطريق الوحيد الآخر وهو حول شمالى النرويج ومن ثم حول شواطىء أوربا الشمالية وآسيا ، وعندما دار البحث حول هذا المشروع كانت المصنوعات الانجليزة آخذة فى الازدهار ازدهارا سريعا لذلك أنصتت التجار اليه وصوبوا اقتراح جون كابت الذى كان موجودا إذ ذاك بانجلترة وهو إرسال بعثة نحو الشمال الشرقى للاتجار والبحث عن أراض جديدة فأسسوا شركة وجهزوا ثلاث سفن كثيرة وقليلا من السفن الصغيرة وقامت البعثة سنة١٥٥٣ تحت إمرة ولو بى وتشانسلور ومعها رسائل من الملك ادوارد السادس إلى الملوك والأمراء وغيرهم من العواهل الذين

يقطنون الأقطار الشمالية من العالم فى طريق امبراطورية كثاى (Cathay) العظيمة. وقد أوصت الرسائل الملوك الأجانب بأن يمدوا رعايا ملك الانجليز بكل معونة وأنهم لن يمدوا أيديهم إلى شيء إلا بارادة الحكام وأن يعتبروهم كأنهم رعاياهم وأن يعاملوهم كما يودون أن تعامل رعاياهم لو حضروا إلى بلاد الانجليز.

ولقد حاول السائحون بادىء الأمر أن أن يزوروا جزائر شتلند ولكن شدة الرياح حالت دون ذلك فعبروا البحار حتى وصلوا إلى جزائر لوفدن المتاخمة لشواطىء النرويج، وهناك قابلوا نرويجياً فى قارب صغير فنصح لهم بالدخول إلى الميناء والحصول على دليل ليرشدهم إلى المرحلة التالية من رحلتهم ولكن اضطراب البحر حال دون ذلك فاضطروا للارتداد نحو البحر وفرقت الرياح السفن أيدى سبأ وسار تشانسلور ومعه سفينتان على غير هدى بحذاء الشاطىء الشمالى للنرويج ومر على غير علم منه بالمكان الذى اتفق هو وزملاءه على المقابلة فيه. ويظهر أنه مرّ على نوفازمبلا ودخل البحر الأبيض ووصل إلى شاطىء لابلاند وقد قضى فيها السائحون الشتاء وقاسوا آلام البرد وصعوبة الحصول على الغذاء المواتى وقد مات كل أصحاب ولوبى غير أنه عثر على السفن الأخرى فيما بعد.

وفى نفس الوقت وصل تشانسلور إلى فردوس (Verdos) محل المقابلة فى الايلند وقد استقر فيها أياماً قلائل ثم صمم على الاستمرار نظراً لحلول الشتاء وخطورة البقاء فى أثنائه. وقبل أن يبدأ رحلة ثانية قابل بعض الصيادين الإسكتلنديين الذين حذروه من المخاطر التى سيلقاها ولكنه لم

ينصت اليهم وصمم على إنهاء الرحلة أو يموت . ولقد تحمس البحارة معه وأقلعوا حتى وصلوا إلى محل ليس به ليل ودخلوا البحر الأبيض فوجدوا بعض الصيادين الذين أرهبتهم السفينة الكبيرة وحاولوا الهروب ولكن حسن معاملة تشانسلور هدأت من روعهم فأظهر الأهالى عطفاً عليهم وأمدوهم بالغذاء ولكنهم امتنعوا عن الاتجار معهم إلا برضاء العاهل وأرسل الأهالى رسولا اليه يستنصحونه فى شان هؤلاء الأجانب فأمر الرسول بارسال هؤلاء الأجانب إلى مقر العاهل ، ولكن السياح استبطئوا الرسول وساروا نحو مقر الملك وكانت رحلتهم شاقة استعملوا فيها المزالق فى وقت كانت فيه الأرض متجمدة ؛ وفى أثناء الرحلة قابلوا الرسول . وكان جواب العاهل ذا أثر حسن فى نفس المسكوفيين الذين أحسنوا معاملة السائحين وأولوا لهم الولائم الفخمة .

وأخيراً أخذ تشانسلور خطاب الإمبراطور إلى ملك الانجليز وقد جاء فيه أن أمبراطور المسكوف يرحب بالأمة الانجليزية ويسمح لكل سفنها أن تزور ثغور بلاده وأن تحمل المتاجر وغيرها من بلاده وتتجر مع أهلها بدون عائق أو خطر ما .

وكان من تأثير تقرير تشانسلور الحسن عن رحلته أن أرسلت الشركة حملة أخرى فى سنة ١٥٥٥ وأنشأت لها وكالات فى جهات عديدة من الروسيا . وكان غرض الوكلاء الحصول على أرباح كافيـــة للشركة التى تكفلت بمصاريف الرحلة . وقد عهد إلى أفرادها أن يبذلوا كل جهدهم لينفذوا من الروسيا إلى مملكة كثاى (Cathay) وأن يتعرفوا مآل السفن

الانجليزية الأخرى ، وكانت الرحلة موفقة وقضى تشانسلور الشتاء التالى بروسيا وعاد أهم رجال الرحلة إلى انجلترة . ثم أرسلت تجريدة أخرى فى سنة ١٥٥٦ ووصلت إلى ساحل لابلند حيث عثرت على بقايا سفن ولوبى. وجاء تشانسلور من روسيا وقابل أصدقاءه و بعد تبادل السلع التجارية سافر على إحدى السفن مع سفير من أمبراطور الروس ، وكان بالسفينة الشمع والزيوت والشحم والفراء واللباد والغزل وما شابهه مما بلغت قيمته حوالى عشرين ألف جنيه ، وكذلك اصطحب معه ١٦ روسياً كانوا يقومون بخدمة هذا السفير . ونزلت بالمسافرين كارثة فخسروا سفينتين من سفنهم الأربع على شاطىء اسكتلند ولم تصل السفينة الثالثة نهر التمز إلا بعد انقضاء شهور عدة . وأما الرابعة وكان على ظهرها السفير فأصابها العطب على شواطىء اسكتلندا وهلك الربان واستولى الاسكتلنديون على حمولتها . وقد وصل السفير آخر الأمر إلى مدينة لندن وقابله أهلها استقبالا حسناً وكذلك الملك فيلب وقرينته الملكا مارى وكانا يحكمان وقتئذ . وقد توطدت العلاقة بين انجلترا والروسيا .

والعمل على إنماء التجارة مع الروسيا والعوائق التى قامت فى سبيل الملاحة حول شمال الدنيا القديمة — كل ذلك كان من شأنه منع التقدم فى حل مسألة الطريق الشمالى الشرقى . ولقد وصل ملاح أو اثنان من المخاطرين إلى نقطة أبعد مما وصل اليها ولوبى ، ولكن ظلت الحال كما هى سنة ١٨٩٧ حين شقت سفينة تجارية طريقها فى هذا الاتجاه حتى وصلت إلى المحيط الهادى .

الفصل الثالث عشر

جون هوكنز (Hawkins) ورحلات دريك (Drake) الأولى

(أنظر خريطة ـ شكل ٩ المقابلة صفحة ٣٥)

ان غزو الأسبان للدنيا الجديدة وإستعمارهم لها كان من شأنه أن توطدت التجارة بين أقطار هذه القارة وأسبانيا وامتلأت خزائن هذه المملكة بكنوز أمريكا ، وصدرت الأوامر بألا يفيد من هذه الكنوز أو التجارة مع هذه الأقطار غير الأسبان .

ولم يتخذ الانجليز من الأسباب مايساعدهم على توطيد أقدامهم فى الدنيا الجديدة منذ رحلة آل كبت (Al Cabots) وكانت قد اتجهت أنظارهم نحو جهات أخرى مثل أقطار البحر الأبيض المتوسط التى كانت تدر عليهم من الخيرات مايجزيهم من المشاق التى يتكبدونها . هذا إلى أنه نظرا للعلاقات الحسنة التى كانت قائمة بين ملكى انجلترا وأسبانيا فان الرحالة الانجليز كانوا يتحاشون ما يكدر صفو ملك أسبانيا . على أنه يصعب دائما أن تحصر التجارة فى دوائر خاصة لا سيما عندما يعرف التجار بقاعا جديدة مبشرة بالخير ، وقد وجد الأسبان صعوبة فى الحصول على عمال للعمل فى مزارع قصب السكر فى جزائر الهند الغربية ، وكان من جراء ذلك أن قام فى نفس هوكنز أن الاتجار بالعبيد يكون ذا قيمة عظيمة ، وكان يعلم بوجود الكثير من هؤلاء على سواحل غانه بافريقية فصمم على الأخذ بتجارة الرقيق بين أفريقية والمستعمرات الأسبانية . وفى أول رحلة فى سنة ١٥٦٢ استطاع أن

يحصل بالقوة أو بوسائل غيرها على ٣٠٠ من الزنوج قايض بهم فى جزائر الهند الغربية بالجلود والزنجبيل والسكر و بعض اللآلى ، وأرسل بعض الجلود للدبغ إلى أسبانيا ولكن أرباب السلطة هناك منعوا الإتجار مع الإنجليز .

وفى سنة ١٥٦٤ قام هوكنز برحلة ثانية . وفى هذه المرة وجد صعوبة فى اغراء اسبان فنزويلا على الإتجار مخافة غضب الحاكم . ولكنهم لم يكونوا جادين فى هذا الامتناع لأنهم كانوا راغبين فى العبيد . على أنه رحل الى جميكا و بحر الكريب وتخلص من هؤلاء الأرقاء ، ومر على سواحل فلوريدا والتقى بجماعة من المستعمرين الفرنسيين . وعندما غادر هذا الساحل دفعت سفينته الرياح الغربية فسارت متجهة صوب الشمال الشرقى ازاء شاطىء أمريكا الشمالية حتى نيوفونلند ومن ثم سارت إلى أوروبا وهذه أول مرة سافر الإنجليز فيها بحذاء الولايات المتحدة .

وكان أهم رحلاته الرحلة الثالثة التى قام بها فى سنة ١٥١٧ وفى هذه المرة وجد صعوبة فى التخلص من عبيده وتأخر بسبب ذلك كثيرا حتى جاء موسم الأعاصير قبل أن يبارح منطقة الخطر فالتجأت سفينته إلى سان جوان دى اراللوا على شاطىء المكسيك . وقد كان فرنسيس دريك Francis Drake أحد ربان أسطوله الصغير وكان معقود الواوه للسفينة چودث Judith وكان قد قضى مدة تمرينه على ظهر سفينة كانت تمخر بمتاجرها عباب بحر الشمال ثم انضم إلى فريق البحارة الإنجليز الذين كانوا يتجرون على الشاطىء الغربى لإفريقية وجمع بذلك ثروة طائلة . وعندما قام هوكنز برحلته الثالثة انضم اليهم دريك على سفينته چودث .

وكان الأسبان المستعمرون للقارة الأمريكية فى سن چوان منتظرين أسطولا أسبانيا ولذلك اشتد بهم الأمر عندما واجههم الإنجليز ، ولكن هوكنز هدأ من روعهم ولم يطلب منهم سوى المواد الغذائية ؛ وكانت بالميناء سفن مملوءة بالكنوز ولكنه لم يستول عليها وأرسل إلى حاكم مكسيكو يطلب إليه الترخيص بأن يستجم وقتا ما ويحصل على المئونة ؛ و بعد ذلك بقليل ظهر أسطول أسبانى قوامه ثلاث عشرة سفينة على أبواب الميناء ورفض هوكنز السماح له بالدخول إلا إذا امتنع عن مهاجمة الإنجليز . غير أنه بعد أن رخص لهذه السفن بدخول الميناء لم تلبث أن هاجمت السفن الإنجليزية و بعض البحارة الذين كانوا فى أرض الميناء ففرت سفينة دريك وأخرى ، واتجهت هذه السفينة إلى انجلترة . أما الأخرى فكانت حمولتها أعظم من طاقتها فأنزلت نصف رجالها الى الشاطىء وسارت بعدستة أسابيع من شاطىء فلوريدا إلى شاطىء أسبانيا ومن ثم الى خليج مونت فى كرنوول فى سنة ١٥٦٨ بعد أن مات الكثير من رجال هوكنز واستشهد عدد عظيم منهم مما قاسوه من الأهوال . ولكن هذه الرحلات أكدت اشتراك الانجليز إشتراكا سلبيا فى تجارة الغرب . ومن ثم اشتبك البحارة الإنجليز والبحارة الأسبان فى نضال مستمر فى الدنيا الجديدة .

ولقد فقد دريك الكثير من ثروته الضئيلة فى مناوأة السفن الأسبانية فى سن چوان . وعندما عاد إلى انجلتره قص المظالم والإضطهاد الذى قاساه الإنجليز من الأسبان ولذلك أثار شعورا سيئا ضدهم ، وصمم دريك حينئذ على مهاجمة المستعمرات الأسبانية لينتقم لنفسه : فقام برحلتين إلى جزائر

الهند الغربية ثم عاد ليتخذ الأهبة للهجوم على برزخ دارين في قلب هذه المستعمرات .

في سنة ١٥٢٧ أبحر ومعه سفينتان وعدة زوارق مدرعة مفككة الأجزاء يسهل تركيبها عند الإقتضاء ، وعندما وصل إلى الشاطىء نزل في نقطة ملائمة و بنى قلعة واحدة وأخذ في تركيب أجزاء الزوارق . ولقد سمع دريك أن الكنوز الأسبانية من بيرو تحمل من الشاطىء الغربي إلى الشاطىء الشرقي عند برزخ دارين ومن ثم تحمل على متون البغال إلى الشاطىء وهناك توسق على السفن إلى أسبانيا، فصمم دريك على اقتناص الكنوز عند وصولها الى ثغر نمبردى ديوس (Nombre de Dios) على الشاطىء الأطلسي، فعندما وصل إلى هذا الشاطىء طرد أكثر الأسبان الذين أصابهم الهلع من جرأته واقدامه وكان على وشك فتح مخازن الكنوز في المحلة لولا انه جرح في أثناء هذه المحاولة ؛ ولما كانت حياته عند البحارة أغلى من الكنوز نقله رجال إلى ظهر السفينة . وفي الأسابيع التالية استولى البحارة الإنجليز على سفن أسبانية كثيرة وأمعنوا في سلب الكثير مما في المحلات الأسبانية بالرغم من جهد الأسبان ومحاولتهم منعهم من ذلك واستماتتهم في الدفاع عنها . ولقد كان يقطن بداخل القارة قبيلة هندية كان رجالها أعداء الداء للأسبان الذين طالما ساموهم الخسف وأثقلوا كاهلهم بالمظالم فتقدم إليهم دريك طالبا مودتهم فصادقوه ووافقوا على تنفيذ أغراضه . و بعد فترة طويلة من الزمن أخبر هؤلاء الهنود دريك ؛ بأن الأسطول الذى يحمل كنوز الأسبان مستقرا في محلة نمبر داديوس ولا تلبث أن تأخذ الغنائم

والكنوز طريقها إلى البرزخ فصمم دريك على اقتناص هذه الثروة وهو فى هذه الرحلة : فقام دريك ومعه عصبة من خمسين رجلا من بينهم ثلاثون من الهنود لتنفيذ هذه المهمة الشاقة ؛ وكان الطريق فى درب متصاعد يتخلل أجمات جميلة . وفى إحدى مراكز الطريق صعد على شجرة ورأى شاطىء المحيطين الأطلسى والهادى فقام فى نفسه أن يبحر بسفينته إلى هذا المحيط العظيم وآلى على نفسه أن ينفذ ذلك يوما من الأيام .

و بعد وقت قصير وقفت حملته عند مركز يستطاع فيه أن يكمن ويترصد قطار البغال ولكن أحد رجاله تسرع فاستشعر الأسبان بالخطر وفروا بكنوزهم إلى بنما ولم يرسلوا إلا التافه منها على ظهور البغال فتكدر دريك غير أنه هجم على قطار آخر من البغال بالقرب من نمبر دى ديوس واستولى على مقدار عظيم من الكنوز ووجد أنه حصل على ما يكفيه مؤقتا فعاد ادراجه الى انجلترة بالسفينتين الباقيتين من سفنه ووصل إلى أرض الوطن فى ١٩ أغسطس سنة ١٥٧٣ واستقبل استقبالا طيبا من أصدقائه ومواطنيه . ولكن الملكة لم يرق لها عمله لأنه عمل سيجعل العلاقات متوترة بين مملكتها وأسبانيا.

و بعد أربع سنوات نال فيها الأسبان من السفن الإنجليزية الشىء الكثير وأصابوا الكثير من سفنهم بالدمار استشاطت الملكة غضبا ووافقت على أن يجوب دريك بإسطول صغير المحيط الهادى ويهاجم المدن والسفن الأسبانية فلم يوافقها وزراؤها ، ولكنها عاونت دريك سراً وتبرع غيرها بالمال لتشجيع المشروع وحصل دريك على السفن للسفرة الثانية التى كان يأمل فيها منذ أن رأى المحيط الهادى على قمة الشجرة فى برزخ دارين .

الفصل الرابع عشر

رحلة دريك حول الدنيا

(أنظر الخريطة المواجهة لصفحة ٥٧)

أبحر دريك من ثغر بلمث في ١٥ نوفمبر سنة ١٥٨٧ وكان معه سفن أربع وزورق صغير مدرع ، وكانت السفرة غير موفقة في مبدئها إذ نزلت بها عاصفة هوجاء عند ما صار في عرض البحر فاضطر للعودة إلى ثغر بلمث لإصلاح ما أفسدته العاصفة وتأخر ثلاثة أشهر ثم استأنف سفرته ؛ ووصلت الحملة بعد ١٢ يوماً إلى شاطىء مراكش فأظهر له الأهالى حسن المودة ولكنهم احتالوا على أسر أحد البحارة الانجليز . وسار الأسطول الصغير جنوباً بحذاء شاطىء أفريقية حتى وصل إلى جزائر رأس فرد فاستقر فيها قليلا حتى تمتع الرجال بكرومها وفاكهتها التى لا تنقطع طول العام لشدة حرارة جو إقليمها . وقد عثروا على الكثير من هذه الجزائر . واستمر الأسطول حتى وصل إلى خط الاستواء وهناك ظل ساكنا مدة ثلاثة أسابيع ولكن كان عرضة للأعاصير والكثير من الرعد والبرق والمطر . وقد ظل الركب مدة أربعة وخمسين يوماً بدون أن يرى أرضا وأخيراً وصل إلى شاطىء البرازيل عند خط عرض ٣٣° جنوبا وهنا حاول الأهالى تدمير الأسطول مستعينين بالتعويذات و بالقربى للشياطين .

ثم اتجه صوب الجنوب حتى وصل نهر بلايت (Plate) وحصل فيه على

الماء العذب . وعلى بعد أميال منه وصل إلى ميناء جيد كثرت فيه عجول البحر و بذا وصل دريك إلى شاطىء بتاجونيا . ولقد أظهر الأهال سرورهم بمقدمه بالرقص والوثب وتناولوا السلع التجارية ولكنهم لم يستسيغوا تسلم شىء من يد رجل بل صمموا على رميها إلى الأرض قبل التقاطهم لها .

وعند ما وصل إلى ثغر سانت جوليان قضى فيه فصل الشتاء واضطر للتحقيق فى سلوك أحد ضباطه من جماعة رفاقه الرئيسيين . ولما ثبتت إدانته أعدم . ولولا أنه فعل ذلك لباءت رحلته بالفشل والخسران . و بعد أن أقام شهرين بهـذه الجهة ونقصت سفنه إلى ثلاثة أبحر صوب مضيق مجلان ووصل إليه بعد ثلاثة أيام . ولقد وجد المضيق كثير الاعوجاج عميق المياه ولاقى صعوبة للرسو فيه . وصادفتهم جزيرة بها الكثير من الأوز فنقلوا منها ما يقرب من ٣٠٠٠ أوزة فى أقل من يوم واحد لغذائهم .

وصل إلى بحر الجنوب South Sea بعد ستة عشر يوما وسارت سفينته تؤم السفن الأخرى إلى المحيط الهادى وهنا ظهر الجو مضطربا وهبت أعصار أغرقت سفينة أخرى ومن بهـا وعادت سفينة حتى وصلت إلى جزيرة تيبرا دلفويجو . وضلت سفينة عن بقية الفلك ورجعت إلى انجلتره .

ولـكن دريك صمم على إنهاء الرحلة ولو بقيت لديه سفينة واحدة ، فسار صوب الشمال بحذاء ساحل شيلى وأخيراً كان يخشى الهنود من أهله من الأسبان و يمقتونهم ، وقد سمع منهم أن الاسبان سفنا مشحونة بالـكنوز راسية فى ثغر فلـبريزو فأقلع صوبه ووجد الفلك فى أيدى جماعة صغيرة من البحارة فغلبهم على أمرهم واستولوا على الـكنوز دون كبير مشقة لأنه

لم يكن يدور بخلد الأسبان ظهور الإنجليز بالقرب من الشاطىء . ولقد فر الأسبان الذين بالمدينة عند ما رسى دريك . و بعد أن حصل على الكنوز أبحر صوب ثغر ليما بمساعدة بحار يونانى كان يقطن تشيلى . ولقد استولت السفينة على الكثير من الخمور والذهب مما أغرى الانجليز بالرسو فى جهات كثيرة من الشاطىء ولقد هاجمهم الأسبان فى جهة ما ولكنهم فى جهة أخرى وجدوا أسبانياً نائماً و بجانبه ثلاثة عشر قضيباً من الفضة . وفى محلة أخرى استولوا على ثمانية جمال أمريكية محملة بالفضة . وفى أريكا وجدوا ثلاث سفن بدون بحارة لأن هؤلاء نزلوا إلى البر اطمئنانا منهم إلى عدم وجود رجال أخر من المستعمرين ، وفى ليما وجدت اثنتى عشرة سفينة محملة بصفائح الفضة ومنسوجات من الحرير والكتان. وهنا سمع أن سفينة أسبانية محملة بالكنوز قد أبحرت شمالا صوب برزخ بنما فجد فى السير حتى أدركها واغتصب ما فيها من الكنوز الكثيرة إذ عثر بها على جواهر نفيسة وثلاثة عشر صندوقاً مملوءة بصفائح الفضة وأربعة عشر رطلا من الذهب وعشرين طناً من الفضة .

و بعد أن اقتنص سفناً أخرى وأفرغ ما فى خزائنها شعر بأنه انتقم انتقاما كافيا من هؤلاء القوم وفكر فى العودة من طريق مضيق مجلان ولكنه خاف من أن يجد الأسبان له بالمرصاد وخاف من الزعازع والأعاصير التى تهب عليه فصمم على أن يعبر المحيط الهادى قاصداً جزائر التوابل ومن ثم يقصد رأس الرجا الصالح ثم بلاده . فسار صوب الشمال حتى تساعده الرياح فى رحلته واستمر ستة أسابيع . وكان الجو بارداً مضايقاً

وأخيراً وصل إلى شاطىء منخفض مستو به فجوة صالحة وهذا هو موقع مدينة سن فرنسسكو الحالية ، وهو أبعد شمالا من أى مركز وصل اليه الأسبان ، ولقد رحب الأهالى بالبحارة وخضع الملك لدريك وسمح له بأن يستولى على الاقليم باسم ملك انجلترا وسمى الإقليم الجديد نيو أليبون Mew Albion ووضع أمارات للدلالة على وجوده به ، وأخيراً ترك هذا الإقليم وسار عبر المحيط الهادى مدة ستين يوما وصل بعدها ال جزائر الفلبين التى قتل فيها مجلان . ثم غادرها دريك الى جزائر الملوك أو التوابل فرحب به أحـد ملوكها ونفح رعاياه البحارة بهدايا من الأوز والدجاج والسكر والموز والقرنفل

وقد زار دريك الملك فوجد إمارات تدل على الثروة العظيمة . ووجد وكلاء لتجار جنوبى أوربا مقيمين بالأقليم . ولـكن دريك رحل منـه رغم ما به من الأغراء والفتنة واخترقت سفينته المضايق على صعوبتها وذلك بفضل الملاحة الوطنيين . ثم سار صوب الجنوب حتى وصل الى رأس الرجاء الصالح ، ثم غادره سائرا بحذاء شاطىء افريقية الغربى حتى وصل سيراليون على شاطى غانه .

وفى ٣ نوفمبر سنة ١٥٨٠ وصلت السفينة الى ثغر پليميث بعـد ثلاث سنوات من مبدأ رحلتها فأنعمت عليه الملـكة بلقب فارس . فـكان أول انجليزى ساح حول الدنيا .

الفصل الخامس عشر

مَرْتِن فروبشر (Martin Frobisher)

بعد أن فشل چون كابت فى كشف طريق إلى آسيا بوساطة ممر فى شمال شرقى المحيط الأطلنطى لم يحاول أحد استئناف هذا الكشف على أن الأمة الإنجليزية ما برحت ترمق بأنظارها الى السير فى الطريق الذى سلكه دلّو بى وتشانسيلور وغيرهما لإيجاد سبيل إلى أرض كاثاى . وفى سنة ١٥٧٤ وضع سير هنرى جلبرت كتابا برهن فيه على إمكان الوصول إلى هذا الأقليم من هذا الطريق . و بعد ذلك بسنتين حاول مرتن فروبشر ، وكان من الذين ارتادوا شاطىء أفريقية الغربى أن يثبت صحة ماذهب اليه جلبرت .

وقد رحبت الملكة بما رآه وأمدته بسفينتين وزورق مدرع . فأقلع فى يونية سنة ١٥٧٦ ومر بجزائر أركنى وشتلند . وفى ١١ يولية أبصر شاطىء آخر هو شاطىء لَبْرا دُور ولكنه تعذر عليه أن يصل إلى الأرض لتراكم الثلوج . ولقد فقد زورق بسبب الضباب وفرت إحدى سفنه راجعة إلى انجلترة وزعم بحارتها أن فروبشر وسفينته الأخرى ضلا الطريق . ولكن فروبشر سار صوب الشمال الغربى ووصل إلى نقطة لم يصلها أحد قبله وهى الشاطىء الجنوبى الشرقى من أرض بَفِن Baffin land فظن أنها جزء من آسيا وسار فى مضيق سماه باسمه ثم صعد جبلا ورأى أشباحا ظنها فى أول الأمر عجول البحر . غير أنه عند ما اقترب منها وجدهم جنوداً فى قوارب

صغيرة من أديم هذا الحيوان فحاول مقايضتهم بأجراس ومرايا وجلود عجول البحر ولكنهم كانوا أناسا شيمتهم الغدر لأنه عندما أنزل خمسة من رجاله إلى البر اقتنصهم هؤلاء الهنود ولم يسمع عنهم شيء فيما بعد . ولقد صمم فرو بشر أن يأسر أحداً من هؤلاء أمارة كشفه فاحتال فى أسر رجل ولكنه حاول الهروب ولما امتنع عليه ذلك قطع لسانه بأسنانه عله يموت ولكنه ظل حياً حتى وصل إلى انجلتره غير أنه مات من برد أصابه فى أثناء الرحلة .

وعاد فروبشر إلى انجلتره سنة ١٥٧٦ وهنأه الجميع على نجاح رحلته .. وقد جمع معه بعض أشياء ذات أهمية منها حجر ثقيل ظهر عند فحصه أن به بعض حبيبات الذهب فأحدث ذلك ثورانا فى الأفكار وألح عليه الناس فى السفر مرة ثانية لجلب مقادير كبيرة منه . فتأهب لرحلة أخرى وسار فى مايو سنة ١٥٧٧ قاصداً نفس الاتجاه إلى مضيق فرو بشر ماراً بجنوب جرينلند فأدهشته كثرة السمك فى هذا البحر . و بعد أن تأخر قليلا بسبب الثلج وصل إلى الأرض التى تحف بالمضيق وجمع كمية كافية من الأحجار السالفة ، واستولى على الأرض باسم مملكته ، وقد ضايقته أعاصير شديدة عادت بسببها إحدى سفنه إلى يَرْمُث ووصل هو بسفينة أخرى إلى لندن .

ولقد صحت عزيمة القوم على أن يقوم فرو بشر برحلة ثالثة بقصد استعمار الأرض الجديدة فقام ومعه خمس عشرة سفينة و بعض المتطوعين

الذين رغبوا فى استعمار هذه الأرض . فقامت الحملة فى مايو سنة ١٥٧٨ ووصلت فى أول يوليه ، ولكن سوء الأحوال الجوية أضلته عن طريقه الأول فدخل خليج هدسن وكشف بالمصادفة الطريق السوى الذى يصل إلى أرض كثاى . وعلى كر الأيام كشف البحارة طريقهم إلى مضيق فروبشر بعد أن خسر الكثير من سفنه وأخذ الكثير من تلك الأحجار ثم قفل راجعا إلى بلاده بدون أن يبقى لكشف جديد .

وعند ما وصلت السفن التى شردتها الرياح إلى لندن اتضح أن الأحجار التى جلبها عديمة القيمة واعتبر عمله من الوجهة العملية عديم الفائدة .

ولقد حاول بادىء بدء أن يكشف مسألة جغرافية ولكن الحصول على ماظنه الثروة حاد به عن هذا الطريق وكان شأنه فى ذلك شأن الكثيرين ولكنه برهن على شجاعته وجلده بوصفه كاشفا وأضاف الكثير من المعلومات عن الشمال المتجمد .

الفصل السادس عشر

الممر الشمالى الشرقى

ديفس Davies وهدسن Hodson و بفن Baffin

جون ديفس

ولو أن فرو بشر لم ينجح فى غرضه الأساسى من كشف طريق شمالى غربى الى كثاى فإن الكثير من التجار الانجليز كان يعتقد فى إمكان النجاح وأخذ تجار لندن يهتمون بالأمر وحصلوا لديفس على امتياز يخوله البحث عن هذا الطريق وكشفه وقام بأغلب النفقات المالية رجل من أغنياء التجار يدعى سندرسن .

السفرة الأولى

غادر ديفس انجلترة فى سنة ١٥٨٥ ووصل إلى ساحل جرينلند بعد أن عبر المحيط الأطلسى ودهشته كثرة الأسماك المتنوعة التى قابلته . ولقد وصف جرينلند بأنها أرض صلبة صخرية وتغطى قمم جبالها الثلوج كما أن هذه الثلوج تغطى سطح البحر لأميال بعيدة ووصف أرضها بأنها بلقع خراب صفصف . و بعد أن سار ديفس حول الرأس المسمى فيرويل Farewell اتجه شمالا حول الشاطىء الغربى لجرينلند حتى وصل إلى خط عرض ٦٤° شمالا وهنا وجد مضيقاً مائياً سماه مضيق جلبرت وعند ما وصل إلى البر عثر على آثار سكان وصفهم بأنهم ذئاب عرايا الأجسام . وقد أشفق

الأهالى منه بادىء بدء ولكنهم آنسوا بالبحارة فيما بعد وقايضوهم السكاكين والمسامير بالفراء والجلود . ولما علم المستكشف من السكان أن بحراً عظيما يمتد فى الشمال الغربى قصده مؤملا أن يصل إلى كثاى ، ولكنه وجد مضيقا مائيا سمى فيما بعد مضيق كمبرلند كان يظنه بغيته ولكنه وجد الوقت متأخراً فعاد إلى لندن وقدم تقريراً بنجاح مهمته .

السفرة الثانية

قام تجار إكستر بتجهيز هذه السفرة وقد قام بها فى سنة ١٥٨٦ و بعد أن وصل إلى مضيق ديفس شاهد تيار مائياً جعله يعتقد بوجود طريق يمر بخليج كمبرلند فسار على مسافة كبيرة من الساحل مستكشفا واصطاد عددا عظيما من السمك المعروف بالكُد Cod وكانت نتيجة هذه السفرة على جانب عظيم من الأهمية إذ استكشف كثيرا من الفجوات المتسعة فى الغرب وارتاد كذلك قسما عظيما من الساحل .

السفرة الثالثة

وصل ديفس فى هذه السفرة إلى مضيق جلبرت ثم سار نحو الشمال متتبعا ساحل جرينلند إلى أن وصل خط عرض ٧٢° شمالا ثم شاهد رأساً عالياً سماه رأس سَنْدرسن ، ثم عبر المضيق ووصل إلى الساحل الغربى ورأى جبل رَالى وكشف خليج كمبرلند ثانية ومضيقا عظيما هو فى الحقيقة مضيق هدسن ثم سار صوب الجنوب وتتبع سواحل لبرادور الشرقية .

وكان ديفس أكثر علماً وخبرة من كل مستكشف آخر فكشف جميع البحار والسواحل كشفا دقيقا ودونها فى الخرائط ، وتتبع ساحل جرينلند الشرقى والساحل الغربى . وقد جمع كثيراً من المعلومات الخاصة بطبيعة الأرض والبحار بتلك الأصقاع . وقد أنبأنا نبأ صحيحاً عن أصل الجبال الثلجية وراقب معيشة الحيوانات على اختلاف أنواعها واستكشف ثلاثة خلجان غربية أحدها مضيق هدسن الذى يصل إلى مضيق بيرنج ولذلك فهو طريق شمالى غربى . ولقد قال ديفس أن هناك أربعة خيران يمكن اعتبار أى واحد منها طريق شمالى غربى وقد ثبت قطعيا منذ ذلك الحين أن اثنين منها يكونان طريقا شماليا غربيا . ولقد استكشف أيضا ساحل لبرادور ورسمه رسماً تخطيطياً . وأما نتائج سفراته العلمية فهى الارشاد إلى وجود مصايد للحيتان وعجول البحر (التى تجود بربح عظيم) فى مضيق ديفس ، واستعمار جزيرة جرينلند نهائياً .

هنرى هَدْسن

اقتفى هدسن أثر ديفس فى كشف الطريق الشمالى الغربى ، وقد قام بعدة سفرات فسافر شمالا صوب جرينلند الشرقية وبرهن على استحالة وجود معبر مائى غير متجمد بين الأرض وسبتز برجن ولكنه أرشد مثل سلفه عن وجود مصايد للحيتان وعجول البحر .

وفى سنة ١٦٠٨ زار نوفازمبلا وحاول أن يجد طريقاً شماليا شرقياً وهو الطريق الذى فشل فى إيجاده وِلوبى وتشانسلور من قبله ولكنه لم ينجح أيضاً . وفى السنة التالية استخدمته (الشركة) الهولندية التجارية الشرقية فأرسلته إلى نوفازمبلا مرة ثانية ومن ثم أقلع غربا إلى شاطىء أمريكا الشمالية وسار جنوبا وكشف نهر هدسن الذى تقع عليه نيويورك الآن وكانت تسمى نيو امستردام من قبل ، وكان هذا أساسا المستعمرات الهولندية الأمريكية التى استولت عليها انجلترة مدة حكم شارلس الثانى .

وفى سنة ١٦١٠ أمر هدسن بترك خدمة هولندة وطلب إليه أن يبحر لكشف البحر الجنوبى ولكنه فشل بسبب سوء سلوك بحارته ورجع وفى طريقه وصل إلى إيسلند وقد حصل على مئونة من هناك وأداه شغفه بأن يبحث عن الأرض التى رآها من قبل . ووصل إلى شمالى لبرادور ودخل بعد أيام إلى خليج هدسن ثم سارت السفينة جنوبا وكانت المياه متجمدة وقل الزاد فثار عليه البحارة ووضعوه هو وأباه الذى كان معه فى قارب وتركوه فى عرض البحر ولم يعلم شىء عنه فيما بعد .

وليم بفن

شرع وليم بفن فى الاستكشاف عام ١٦١٤ ليتم ما قام به ديفس ؛ فسار من رأس عشم سندرسن نحو الشمال واستكشف جزيرة من جملة جزائر تسمى جزائر بفن واستمر فى سفره نحو الشمال حتى مضيق ديل ثم سار غربا إلى أن وصل إلى متسع من الماء سماه مضيق جونس ومضيق آخر فى جنوب يسمى مضيق لنكستر ، واستمر فى السير جنوبا واخترق مضيق ديفس ورجع إلى انجلترة . وكانت نتيجة هذه السفرة استكشاف خليج بفن ، وزعم أن مضيق جونس ومضيق لنكستر عبارة عن خليجين ليس إلا . ولكنهما كانا أساس الاستكشافات الحديثة المهمة فى المحيط المتجمد الشمالى .

ولقد أفضت هذه السفرات السالفة إلى كشف خليج هدسن وسواحله والجزائر التى به ، ووسع هذا الاستكشاف نطاق معلوماتنا الجغرافية ومهد السبيل لاستكشافات حديثة وبسببه تأسست شركة عظيمة تدعى شركة خليج هدسن التى لا تزال إلى الآن قائمة وذات تجارة رابحة فى الفراء .

الفصل السابع عشر

جلبرت ورالى Gilbart and Raleigh

كان لسفرات هوكنز وجلبرت إلى شواطىء خليج مكسكو الفضل فى إثارة اهتمام الانجليز بالأرض الواقعة بين مستعمرات الأسبان وجزيرة

نيوفوندلند ، وفكروا فى احتلال هذا الجزء من أمريكا (هو الآن الولايات المتحدة) وبخاصة ان سفرات كابت جعلت لهم بعض الحق فى الاستيلاء على هذا الأقليم .

وفى سنة ١٥٨٢ قام جلبرت بسياحة استغرقت سبعة أسابيع ووصل إلى شاطىء نيوفوندلند ، ولكن التجار الدين كانوا يشتغلون بصيد السمك هناك منعوه وصحبه من دخول الميناء ، بيد أنه عند ما أبرز لهم الأوامر الرسمية التى خولته القيام برحلته أذنوا للسفن بدخول الميناء وأمدوهم بالشىء الكثير من مقومات الحياة . ولقد استولى جلبرت على ميناء سنت حون ومائتى فرسخ حولها بأسم ملكة انجلترا ولقد وجد عند فحصه أرض الجزيرة أنها غنية بالفاكهة والكلأ وأن جوها دفىء لطيف فى الصيف و بارد فى الشتاء .

و بعد مدة وجيزة عزم جلبرت على الرحيل نحو الجنوب ، ولكن البحارة ثاروا عليه وعلى أوامره لأنه منعهم من أن يسيروا سيرة لصوص البحر ، ومن سوء سلوكهم أنهم حاولوا خيانته . فأرسل أحدى سفنه إلى انجلترا وعليها المرضى وأقل البحارة شجاعة ، وسار هو بثلاث سفن فغرقت إحداها وكان بها المئونة كما غرق معظم بحارته . فاضطر مرغما على العودة إلى بلاده مصمما على العودة إلى هذه البلاد فى العام التالى . و بعد أن مر على جزائر ازورز عصفت الأمواج بسفينته وغرقت بكل ما فيها ومن فيها وذهبت روحه ضحية شجاعته .

سيروولتر رالى

لقد ساعد رالى جلبرت فى رحلته السالفة الذكر ، وساعد أيضا على مد بعثات أخرى بالمال للذهاب إلى الشاطىء (الذى يسمى الآن كرولينا الشمالية) وسميت هذه المستعمرة فرجنيا (العذراء) تشريفا الملكة اليزابث .

وكانت بنتيجة هذه السفرات إلى فرجنيا إدخال زراعة الدخان والبطاطس فى انجلترا .

وكان أهم رحلات رالى تلك التى سافر من أجلها للبحث عن مدينة لدرادو الخيالية التى كان يعتقد وجودها فى جيانه بأمريكا الجنوبية . وكان يظن أن بها الكثير من الذهب ، وهى فى حوض نهر أرنوكو ، وأن عاهلها يقطن فى قصر من الذهب بالقرب من بحيرة عظيمة ، فأقلع فى سنة ١٥٩٥ ومعه خمس سفن ووصل إلى ترنيداد ثم ترك سفنه ونزل معه مائة من رجاله فى قوارب ليجوبوا نهر أرنوكو . . . وقد أرهقته ورجاله شدة الأمطار وسرعة تيار النهر فاشتد سخطهم وهددوه بالعصيان ولكنه شجعهم حتى وصلوا إلى أكبر فروع دلتا النهر فوجدوا الأسماك والفواكه الكثيرة والطيور المختلفة ذوات الألوان البهيجة . ولقد هاجموا الكثير من المدن الهندية واغتصبوا ما وجدوه من المئونه وعثروا على قبر فى إحدى محلات بعض الهنود فتشجعوا على المثابرة حتى وصلوا إلى جبال جيانه ثم استمر رالى حتى وصل إلى سهل لانوس Lanos أكثر أراضى أمريكا الجنوبية خصبا ونماء .

و بعد أن جمع رالى نماذج من الصخور التى ظهرت بها حبيبات الذهب و بعض الأحجار التى كانت تظهر كالماس تأهب للعودة فوصل إلى ترنيداد بعد أن أجهدته عواصف الرعد والريح ورجع إلى انجلترا فى آخر السنة .

ولقد رغب فى القيام برحلة أخرى ولكن عند جلوس جيمس الأول فى سنة ١٦٠٣ على عرش انجلترا أثار سخط الملك عليه فسجن ثم أفرج عنه فى سنة ١٦١٧ على أن يقوم بحملة تذهب إلى جيانه للبحث عن الذهب والفضة . ولكنه لم يستطيع تنفيذ أوامر ملكه بدون أن يشب بينه و بين الأسبان نزاع كان من نتيجته غضب الملك عليه واعدامه إرضاء لملك الأسبان .

وتملك انجلترا الآن إقليما عظيما بالقرب من الأقليم الذى ارتاده رالى ، وهناك أمارات كثيرة تدل على أن وجود الذهب والماس الذى تكلم عنه رالى لم يكن مجرد خيال .

الفصل الثامن عشر

المستكشفون الفرنسيون فى كندا : فيرازانو (Verrazano) وكارتيير (Cartier) وشمبليين (Champlain)

بعد سنوات لم تكن كثيرة أخذ عدد كبير من البحارة يسافر من شمال فرنسا الغربى و بخاصة من بر يتانى إلى شواطىء نيوفوندلند للاشتراك فى صيد

السمك من هذا الاقليم وظهر اهتمام الفرنسيين بالدنيا الجديدة عند ما تقدم ڤيرازنو الفلورنسى عام ١٥٢٤ بالذهاب بحملة إلى شاطىء امريكا الشمالية ليحصل لفرنسا على نصيب فى الدنيا الجديدة فاستكشف الساحل الشرقى من امريكا من أول فلوريدا حتى استكشافات كابت فى نيوفوندلند و بذلك أصبح لانجلترا وأسبانيا والبرتغال الحق فى ملكية القارة الأمريكية . و قد تأكد حق فرنسا برحلة كارتيير الذى سافر عام ١٥٣٤ واستكشف نهر سانت لورنس وسار فيه حتى موقع مدينة منتريال الحالى و بذا وضع أساس مستعمرة « فرانسا الجديدة » . ولقد قام برحلات كثيرة بعد ذلك وكان آخرها فى سنة ١٥٤١ ولقد وصل إلى كوبك و بنى قلعة هناك .



(الفرنسيون فى كندا).

ولكن الفضل العظيم فى نجاح استعمار الفرنسيين لكندا كان يرجع إلى شمبلين واقد سافر وهو حديث السن إلى جزائر الهند الغربية والمكسيك وأشار على ملك فرنسا بأن يحفر قناة فى برزخ فيها :

ولقد سافر شمبلين عام ١٦٠٣ إلى كندا فاستكشف بعض البحيرات العظمى و بسط نفوذ فرنسا على كندا وأسس مدينة كو بك سنة ١٦٠٨ ، وهو أول حاكم فرنسى لكندا واستكشف عام ١٦٠٩ بحيرة شمبلين وأحب تجارة الفراء الرائجة السوق .

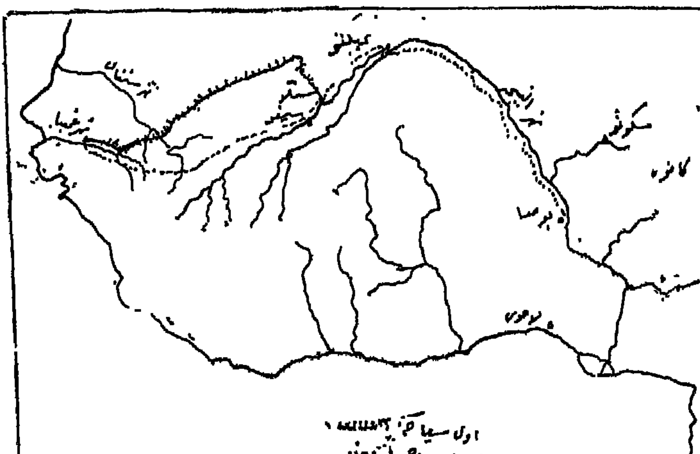
واستمر الفرنسيون فى استكشافاتهم فى البقاع الداخلة فاستكشف مَرْكت نهر مسسپّى عام ١٦٧٣ وسافر فيه حتى ملتقاه مع أركنساس . واستكشف رو برت دى لاسال نهرى أهايو وألنوى وسار فى نهر مسسپى حتى مصبه بين سنتى ١٦٨٠ — ١٦٨٢ وأطلق على الاقليم جميعه لو يز يانا وتأسست مدينة نيوأرليانس عام ١٧١٦ و بذلك امتد النفوذ الفرنسى من كويك إلى مصب مسسپى (شكل ١٢)

الفصل التاسع عشر

كشف نهر النيجر — مَنْجو پارك

لقد كشفت سواحل افريقية وعرف تخطيطها عند نهاية القرن الخامس عشر ، ولكن ظل داخلها مجهولا كثيرا قبل ذلك العهد لذلك أنشئت

بلندن عام ١٧٨٨ الجمعيـــــة الافريقية وكان غرضها كشف ما غمض من افريقية ، وابراز ما خفى منهـا وذلك بارسال الـكاشفين إلى أواسطها ، وكانت أول جمعية تشكلت ثم انضمت فى عام ١٨٣١ إلى الجمعية الجغرافية الملـكية التى بعثت أناسا كثيرين لهذا الغرض ، ومن أشهر هؤلاء الدكتور منجو بارك الذى أرسل لاستكشاف نهر النيجر ولقد حاول كشف منبع هذا النهر عن طريق نهر غمبيا فغادر الساحل سنة ١٧٩٥ سائراً نحو أعالى نهر غمبياومنه إلى نهر النيجر عندبلده سيغو ومن ثم اقتفى أثرالنهر إلى سيلا ثم مرض عقب ذلك وعجز عن الوصول إلى تمبكتو ولـكنه كشف الأقاليم



سياحات منجو بارك

الواقعة فى وسط النهر وعين حدود الصحراء الـكبرى الجنوبية ثم عاد

سنة ١٧٩٥ . وفى عام١٧٩٧ قام بسياحة أخرى إلى هذه الجهة نفسها للغرض عينه فغادر الشاطىء بالقرب من رأس فيرد ثم سار فى نهر غمبيا ومنه إلى نهر النيجر عند سيلا وهى منتهى سفراته الأولى ومنها إلى تمبكتو وجال فى بلاد حوصة ولكن قضى نحبه فى الجنادل التى عند بوصا وذلك عندما أوشك أن ينجز عمله وهو اقتفاء أثر النهر حتى مصبه .

وسافر من القاهرة عام ١٨٦٩ فردريك هورنمانى الألمانى المستخدم بالجمعية الأفريقية قاصداً نهر النيجر وقد اتخذ طريقا عجيباً إذ سافر من القاهرة إلى مرزوق (بطرابلس) مجتازاً الصحراء اللوبية ثم ارتاد الأقاليم الواقعة جنوبى طرابلس وبخاصة بلاد برنيو الواقعة فى الجنوب الغربى من بحيرة شاد ثم سار إلى أن أغتالته المنون بأقليم غربى نهر النيجر بالقرب من بوصا .

وسار الدكتور أودنى والقائد هيو كلاپرتن والضابط دنهام عام ١٨٢٢ من طرابلس إلى مرزوق وفى العام التالى كشفوا بحيرة شاد ثم مات أودنى فى برنو ، وبعدذلك كشف دنهام نهر شيرى ، وساح كلاپرتن فى بلاد حوصا شمالى نهر النيجر ثم رجع الإثنان بعد ذلك إلى طرابلس . وهذه السياحات تعد من أعظم السياحات الناجحة نجاحاً تاما فى وسط أفريقية

وسافر كلابرتن مرة أخرى عام ١٨٢٥ من لاجوس وبعد أن عبر نهر النيجر وصل إلى سكوتو ثم مات عند زنجيروا الواقعة فى الشمال الغربى من ربّا .

وسافر الضابط لانج عام ١٨٢٥ من سيرا ليون وعثر على منبع نهر

النيجر و بعد ذلك سافر فى الصحراء الكبرى إلى غات فى الجنوب الغربى من فزان ومنها إلى تمبكتو و بعد ذلك قتلته قبيلة التوارك عند أوبته .

وفى عام ١٨٢٢ أرسلت الحكومة البريطانية الأخان رتشارد وجون لندر ليتما استكشاف نهر النيجر وقد نجحا فى تتبع مجرى النهر من بوصا (التى مات عندها منجو بارك)إلى بوصاعندمصبه وأثبتا أن له عدة فروع تصب فى خليج بنين ، كما أثبتا (بخلاف ما كان معتقداً إذ ذاك) أنه نهر منفصل عن نهر الكنغو ، وتمكنا من تسيير البواخر فى نهر النيجر الأدنى ومهدا سبيلا للتجارة بين الأقاليم الداخلة .

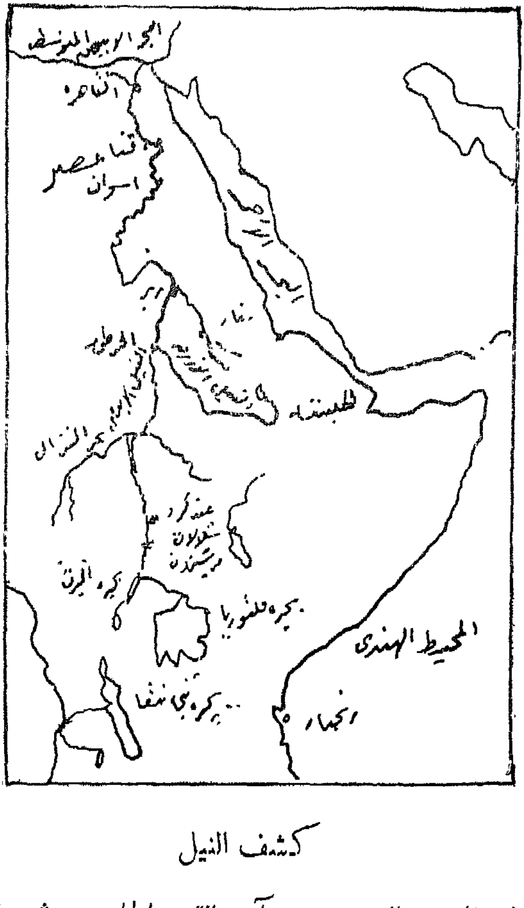
الفصل العشرون

(١) كشف النيل الأزرق — بروس B ruce

إن المصريين الأول الذين عاشوا على ضفاف النيل وكانوا على جانب عظيم من الحضارة لم تكن لهم معرفة تامة على ما يظهر بمجرى هذا النهر الذى اعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً . ومن المحتمل أن يكونوا قد عرفوا المجرى الأصلى للنهر حتى الموقع الحالى لمدينة الخرطوم ، كما عرفوا أيضا مجرى النيل الأزرق . وذلك لصعوبة السير فى تلك الأيام فى النيل الأبيض جنوبى موقع الخرطوم .

على أن اليونانيين اهتموا اهتماماً عظيما بمجرى النهر فلقد ساح مؤرخهم

هيرودوت فى أعالى النهر وجمع بعض المعلومات عنه غير أنها لم تكن دقيقة ولقد رسم بطليموس وكان سائحا مؤرخا سنة ١٥٠ بعد الميلاد خريطة للنيل



كشف النيل

وظلت هذه المرجع الوحيد حتى آخر القرن الخامس عشر إلى أن أدلى السائحون الآخرون وبخاصة العرب منهم بمعلومات أخرى . وفى مبدأ

القرن السابع عشر زار أحد رهبان الجزويت البرتغالية بلاد الحبشة وكشف أحدهم منبع النيل الأزرق سنة ١٦١٣ . ولكن بحثه لم ينشر وظل منبع النهر غامضا للعالم . وأخيرا فى آخر القرن التاسع عشر جاء رجل كشف ثانياً ما قام به ذلك الراهب ، ذلك هو جيمس بروس . وكان اسكتلنديا عينه وليم بت Pitt رئيس حكومة انجلتره قنصلا عاماً لها فى الجزائر . فتعلم اللغة العربية ثم سافر ميمما شطر شرقى البحر الأبيض المتوسط وزار القاهرة فى يوليه سنة ١٧٦٨ . واستأذن حاكمها فى سياحة فى أعالى النيل حتى الأقصر ومن ثم سافر إلى أسوان ثم عاد إلى قنا ومنها سافر إلى القصير على شاطىء البحر الأحمر فوصل إليها فى فبراير سنة ١٧٦٩ ثم سار فى البحر جنوبا إلى مصوع ومنها سافر إلى بلاد الحبشة فوصل غندر عاصمة الحبشة إذ ذاك سنة ١٧٧٠ . وبعد أن أقام بها مدة سار إلى البقعة التى عينها غيره من قبل ووصل إلى البحيرة التى ينبع منها النيل الأزرق .

الفصل الحادي والعشرون

(٢) النيل الأبيض

برتن Burton واسبيك Speke وجرانت Grant

وبيكر Baker

برتن وإسبيك

لقد أكدت سياحات بروس ما كان معلوما عن النيل الأزرق . أما النيل الأبيض فلم يستكشف الا حتى غندكرو وذلك لأن الجنادل بالقرب منها كانت تحول دون السفر فى النهر جنوبيها . وقد عاق المستكشفين أيضا عن سيرهم عدوان الأهالى عليهم فعن لرتشارد برتن الضابط بالجيش الهندى أن أقوم طريق يساعده على الوصول الى النيل الأبيض يكون من ساحل افريقية الشرقى . فذهب مصحوبا بزميل يدعى جون إسبيك الى بلاد الصومال ليقفا على حقيقة البحيرات العظيمة التى قال عنها المبشرون الذين أقاموا بمبسًا غير أنهما لم يتمكنا من التجول فى البلاد لاعتداء الأهالى عليهما ، وقد أمدتهما الجمعية الجغرافية الملكية بأموال ليسافرا مرة أخرى وسافرا فى حملة أكبر عدداً من الأولى وغادرا زنجبار سنة ١٨٥٧ وسارا غربا حيث كشفا بحيرة تنجانيقا . وعند أوبتهما كاف برتن زميله أن يستكشف بحيرة واقعة

فى الشمال الشرقى من هذه البحيرة فكشف بحيرة فكتوريا التى ظن أنها منبع النيل الأبيض .

إسبيك وجرانت

سافر إسبيك وجرانت من زنجبار عام ١٨٦٠ ليستزيدا من معلوماتهما عن البحيرات الكبيرة فوصلا إلى الساحل الشرقى من بحيرة فكتوريا وكشفا نيل سمرست الذى يخرج من هذه البحيرة ثم سارا مقتفين أثره حتى غندكرو وهناك قابلا السير صمويل بيكر وزوجته (اللذين كانا سافرا فى النيل من القاهرة) وأخبراه بوجود بحيرة أخرى سمعا عنها من بعض الناس ، ثم تتبعا النيل إلى مدينة الخرطوم ومنها وصلا إلى القاهرة بعد أن حلا تلك المسألة العويصة وهى استكشاف منابع النيل .

السير صمويل بيكر

كشف السير صمويل بيكر وزوجته هذه البحيرة التى سمعا عنها وذلك فى عام ١٨٦٥ وسمياها بحيرة ألبرت وفى عام ١٨٦٩ قاد هذا المستكشف حملة حربية ومن معه ليستكشف النيل الأعلى ويمنع تجارة الرقيق وينشىء مراكز حربية مصرية ثم آب عام ١٨٧٣ بعد أن استولى على هذه البلاد الممتدة إلى خط الاستواء وجعلها تحت سلطان مصر . وبعد أن احتل السودان مرة أخرى صارت معرفتنا بالنيل الأعلى ونهرياته تامة ثم قطع السد الذى يعترض مجرى النيل واصبحت السفن الآن تسير من الخرطوم إلى غندكرو فى مواقيت معلومة .

الفصل الثانى والعشرون

دافيد لفنجستون David Livingstone

ليس هناك رجل من بين المستكشفين المشهورين فى العالم أعظم من لفنجستون وذلك للعمل الجليل الذى قام به فى هذا الصدد من جهة ، واخلاصه وتنفيذ ما قصد إليه من جهة أخرى . وهو اسكتلندى ولد عام ١٨١٣ وكان فى مبدأ حياته عاملا فى مصنع لنسج القطن حيث كسب من المال ما ساعده على أن يتلقى دراسة طبية فى جامعة جلاسجو . ثم عين طبيبا مبشرا فى الصين ، ولكن الحرب نشبت مع أهل هذه البلاد فراض نفسه على السفر إلى جنوب أفريقية سنة ١٨٤٠ . ونزل فى خليج ألجوا وساح نحو ٧٠٠ ميل فى مركبة تجرها الثيران حتى وصل كورمان فى بتشوانالند ولقد علم من سكان هذه الجهة خبر وجود أنهار وغابات وبحيرة عظيمة خلف صحراء كلهارى فأخذ يدرس شيئا عن عادات أهلها وارائهم وقوانينهم ولغتهم ثم شرع عام ١٨٤٩ فى القيام بعدة سفرات وسط أفريقية جعلته أعظم المستكشفين لهذه القارة .

فغادر كلوين الواقعة بالقرب من منبع نهر لمپوپو فى أول يونية من تلك السنة وذلك ليستكشف بحيرة نجامى (الزرافة) التى كانت قبلة المستكشفين زمنا طويلا فسار حول تخوم صحراء كلهارى الشرقية ثم ساح فى بعض أجزاء تلك البحيرة التى هى قطب دائرة الأنهار فى جنوب أفريقية و بعد ذلك عاد إلى كلوين .

وفى عام ١٨٥٠ غادر مقره وذهب شمالا فرأى نهر زمبيزى . و بعد أن أرسل زوجه وأولاده إلى انجلترا عزم على استكشاف نهر زمبيزى ليجد طريقا أقرب إلى بتشوانا الشمالية بدلا من الطريق الممل الذى يشق وسط صحراء كالها رى مبتدئا من كيبتون أو خليج ألجوا . نسافر فى عام ١٨٥٣ فى نهر زمبيزى ثم وصل إلى شنتى عام ١٨٥٤ ومن ثم سافر شمالا بجوار نهر ليبا وكشف بحيرة ديلولو التى ظن الناس زمنا طويلا أن نهر الكنغو يتغذى منها ، ولكن ظهر الآن عدم صحة ذلك وقد استمر فى سيره إلى كساى أحد نهيرات نهر الكنغو ، ثم اجتاز خط تقسيم المياه المحصور بين حوضى نهر زمبيزى ونهر الكنغو وهو سهل مرتفع تتخلله عدة مستنقعات و بعد أن عبر كساى غربا فى غابة الكنغو وصل إلى نهر كوانجو الذى كان الحد الشرقى لأفريقية الغربية البرتغالية ثم وصل إلى مستعمرة كسانجى فى انجولا وهى مستعمرة تجارية برتغالية . و بعد أن مر بمناظر جميلة فى طريقه وصل إلى سنت بول دى لواندا فى ٣١ مايو عام ١٨٥٤ . و بعد أن أقام بلواندا مدة أربعة أشهر تقريباً عاد قاصداً أن يقفو أثر نهر زمبيزى ليعرف مقدار فائدته كطريق مستقيم لداخل أفريقية فكشف فرعان من فروع الزمبيزى (كانو ولوانجو) ثم الشلالات التى أسماها شلالات فكتوريا ثم سار إلى زمبو وهى مستعمرة برتغالية قديمة ومن ثم وصل تته وهى أهم المستعمرات البرتغالية وسار مع النهر حتى كايمانى الواقعة عند مصبه .

وعند أوبته إلى انجلتره عين قنصلا فى ليمانى لساحل أفريقية الشرقى جنوب زنجبار كما عين قائد البعثة لاستكشاف أفريقية الشرقية والوسطى .

وفى سنة ١٨٥٥ سار فى مصب نهر زمبيزى حتى تته . ولما ألجأته الضرورة إلى أن ينتظر باخرة أخرى هناك عزم على كشف نهر شيرى والبحيرة العظيمة التى زعم الناس أنه ينبع منها فسار فى النهر إلى مسافة ٣٢٠ كيلو متراً ولكنه منعه من السير إلى أبعد من هذا شلالات سماها شلالات مرشيسون . وفى تلك السنة أجهد نفسه مرة أخرى حتى كشف بحيرة نياسا وكشف أثناء مسيره بحيرة شروة جنوب بحيرة نياسا ثم عاد إلى تته .

وفى سنة ١٨٦٠ ابتدأ يتجول فى الأقاليم الداخلة ثم أعاد النظر فى شلالات فكتوريا ومنها رجع إلى تته حيث وصلت باخرة وقتئذ من انجلتره .

وكانت رغبته شديدة فى استكشاف نهر رفوما ليتحقق ما إذا كان هذا النهر صالحا للملاحة حتى قلب نياسا لند التى لم تكن تحت سلطان البرتغاليين مباشرة غير أن قلة المياه فيه عاكسته عن السير فيه إلا إلى مسافة قصيرة . ثم عاد إلى زمبيزى وسار فى نهر شيرى واستكشف الساحل الغربى لبحيرة نياسا .

و بعد أن أقام لفنجستون مدة بانجلتره عاد ثانية إلى زنجبار وسار نحو دفوما عام ١٨٦٦ وكان غرضه السير فيه جنوب بحيرة تنجانيقا ليعبر الحدود الجنوبية لحوض نهر النيل . فاقتفى أثر نهر رفوما حتى وصل إلى نهاية بحيرة نياسا فى الجنوب ومن ثم سار نحو الشمال وعبر نهر لوانجو وكشف نهر تشامبيزى وهو عبارة عن الجزء الأعلى من مجرى نهر الكنغو الذى يصب فى بحيرة بنجويلو . وفى سنة ١٨٦٧ كشف بحيرة مويرد ثم اخترق بلاد كازمبى

وكشف بحيرة بنجويلو . و بعد أن سبر نصفها الشمالى سار إلى أوجيجى ثم عبر بحيرة تنجانيقا حتى وصل إلى نهر لولابا (وهو جزء من الكنغو) ولكن المرض ألجأه إلى العودة إلى أوجيجى .

ولما طالت مدة تغيب لفنجستون بأواسط أفريقية عن العالم المتمدين ابتدأ يدب فى قلوبهم القلق عليه فأرسلت بعثة تحت رياسة استانلى للبحث عنه فوجده عند اوجيجى فى شهر نوفمبر سنة ١٨٧١ . ثم سار كل من استانلى ولفنجستون معا فى سفينه وجالا فى شمال بحيرة تنجانيقا ولم يجدا لها منفذا ، ثم أبى لفنجستون أن يرجع مع استانلى ورافقه حتى طابوره حيث افترقا وأخذ استانلى كل أوراق ومذكرات لفنجستون معه . وقد أصر لفنجستون على رأيه محاولا استكشاف منابع نهر النيل وظن أن لولابا لابد أن يكون هذا النيل الأعلى . ثم غادر طابوره قاصداً اتمام كشفه بعد أن أخذ المؤن والذخائر التى جلبتها له بعثة الجمعية الجغرافية الملكية ؛ ومن ثم مر بجنوب بحيرة تنجانيقا الشرقى حتى وصل الى نهر كالنجوسى الذى يصب فى بحيرة مويرو ، ومن ثم عبر المستنقعات التى فى شمال بحيرة بنجويلو ثم عبر نهر تشامبيزى كذلك وسار حول بحيرة بنجويلو الشرقية حتى وصل إلى تشيتمبو جنوب تلك البحيرة حيث حضرته الوفاة فى أول مايو سنة ١٨٧٣ فنقل اتباعه جثته وكان ذلك بالقرب من طابوره وأرسلت الجثة الى انجلتره حيث دفنت فى كنيسة وستمنستر سنة ١٨٧٤ ، ولكن أعماله فى محاولة تخفيف آلام السكان الوطنيين البؤساء ما زالت خالدة وما زال اسمه حتى اليوم فى الاجزاء السحيقة من هذه القارة يذكر باحترام عندهم .

الفصل الثالث والعشرون

استانلى ونهر الكنغو

كانت نتيجة سياحات استانلى أن كشف حوض نهر الكنغو بأكمله وأسس ولاية الكنغو الحرة ثم تداخلت بعد ذلك بعض الدول الأوروبية الأخرى فى الشئون الأفريقية .

وصل استانلى زنجبار فى سنة ١٨٧١ وغادر بغامويو و بعد ملاقاته كثير من المشاق من الصعاب الناشئة بين العرب والوطنيين من الأحقاد وجد لفنجستون عند أوجيجى ثم سارا وأثبتا أنه لا علاقة بين نهر النيل و بحيرة تنجانيقا بل أن كلامنهما بمفرد عن الآخر ثم رجع استانلى إلى بغامويو كما سبق ذكره .

ولما وفق استانلى للعثور على لفنجستون ذاع صيته و إزدادت شهرته

ولما سمع لفنجستون بوفاة استانلى عزم على اتمام عمل صديقه فسار من بغامويو سنة ١٨٧٤ وطاف حول بحيرة فكتوريا وسبرها ورسمها رسماً تخطيطياً يقرب من شكلها الحقيقى المرسوم على الخرائط الحالية ثم كشف بحيرة البرت إدوار وزاد العالم علما عن نهر كاجيرا أو نيل الكسندرا . ثم طاف حول بحيرة تنجانيقا ودقق النظر فى منفذها وهو نهر لكوجه حتى وصل إلى نهر لولابا عند نيانجوى وهى أبعد نقطة وصل إليها لفنجستون ثم اقتفى أثر مجراه كله حتى بلغ أبعد نقطة على هذا النهر و بعد مضى ألف يوم

من مغادرة الساحل الشرقى دخل بلده بنانا على الساحل الأطلسى . وكان إذ ذاك قد اقتفى أثر نهر الكنغو حتى البحر وبرهن على أن تشامبيزى ولوابولا ، ولولابا ليست الأجزاء من نهر الكنغو .



(رحلات لفنجستون وستانلى فى نهر الكنغو)

وكانت نتيجة جميع هذه المشاق الهائلة والهمم التى صرفت فى سبيل علم تقويم البلدان إن ازدادت معارفنا الجغرافية عن أحوال أفريقية .

وادخلت جميع الأراضى التى كشفها الانجليز تحت النفوذ البريطانى وكانت نتيجة ذلك بسط الحماية على أفريقية الشرقية وأوغنده . لذلك كانت مآثر المستكشفين البريطانيين عظيمة جداً . كيف لا وقد تغلبوا على قوى الطبيعة وقهروها بما بذلوه من المساعى ، ومن تلك المآثر مد الخطوط الحديدية ما بين ممبسا وأوغندا ومن لاجوس إلى كانو ومن كيبتون إلى الغابات الكثيفة بليبيريا .

هذا وأن الاعتناء بدرس الأمراض المنتشرة هناك واستنباط أدويتها لا يزال مستمراً إلى الآن كما أن الاعتناء بقوانين الصحة لطف من قساوة المناخ وفساده وما ينجم عنه من النتائج السيئة .

ولقد لفت استانلى أنظار العالم التجارى بما أذاعه عن أنهار افريقية العظيمة الصالحة للملاحة التى تساعد على الوصول إلى داخل القارة وعن ثروة البلاد التى جلبها فى سياحاته الافريقية .

فبعث ملك بلجيكا رسله لمقابلة استانلى ثم اتفق معه على إرسال بعثة إلى افريقية لم يكن الغرض منها توسيع نطاق العلوم فحسب بل توسيع دائرة التجارة أيضا وترقية أحوال الوطنيين الافريقيين . وكان استانلى من أوائل من أدرك ما سيكون لحوض نهر الكنغو من الأهمية فى المستقبل . فوصل استانلى نهر الكنغو عام ١٨٧٩ ولكنه وجد أن الفرنسيس قد احتلوا الجزء الواقع حول مصبه ، فمهد طريقا من نهر الكنغو الأعلى وأبرم معاهدات شتى مع كثير من رؤساء القبائل وأسس أربعين محطة على نهر الكنغو

ونهيراته حتى شلالات استانلى ، وقصارى الأمر أنه وضع أساس ولاية الكنغو الحرة وأقام هناك حتى سنة ١٨٨٤ .

وفى مؤتمر برلين الذى انعقد فيما بين سنتى ١٨٨٤ ، ١٨٨١ أشهر استقلال ولاية الكنغو الحرة وجعل ليو بلد ملك البجليك ملكا عليها .

ولما نقضت شروط معاهدة برلين المذكورة تولت الحكومة البلجيكية إدارة شئون الكنغو بنفسها وسارت الكنغو مستعمرة بلجيكية .

وكانت آخر بعثة سار فيها استانلى إلى افريقية هى البعثة التى ذهبت لنجدة أمين باشا الحاكم المصرى للولايات الاستوائية وكانت ثورة الدراويش بالسودان قد قطعت العلائق والمواصلات بينه و بين مصر .

فصعد استانلى نهر الكنغو سنة ١٨٨٧ مستصحبا معه قوة من الجنود السودانية ثم اخترق غابة الكنغو العظمى فصادف أقواما صغار الجسم يعرفون بالأقزام الى أن التقى بأمين باشا عند سواحل بحر البرت فراد نهر سمليكى وكشف جبال رونزورى ثم سار حتى وصل إلى بغامو بو على الساحل الشرقى مستصحبا أمين معه . ولا يخفى ما لهذه البعثة من الأهمية العظمى والنتائج الكبرى فى كشف افريقية و إدخال الحضارة اليها .

الفصل الرابع والعشرون

كشف سواحل استراليا تورز Torres وطمسن Tasman ودمپير Dampier

مما يعجب له أن القارة العظيمة الجنوبية كان يعتقد بوجودها مدة قرون عدة قبل أن تكشف : ففى القرون الوسطى كان الاعتقاد السائد أنه لا بد من وجود جزء من الدنيا فى الجنوب ليكون متزنا مع الجزء الشمالى ، وفى الخرائط الكثيرة التى رسمت فى هذه الأيام كان من المعتاد بعد كشف امريكا الجنوبية أن ترسم القارة الجنوبية كأنها امتداد لهذه القارة فى جنوب افريقية ومخترقة المحيط الهادى الجنوبى ولكن رحلة مجلان برهنت أن امريكا الجنوبية تنتهى عند مضيق مجلان وقد ثبت فيما بعد وجود قارة جنوبية Terra Australis ، أو الأرض الجنوبية .

ولقد علمنا فيما سبق كيف أن السائحين البرتغاليين والأسبان سافروا فى المحيط الهادى وكيف كان غرض البرتغاليين ترقية تجارة التوابل مع جزائر الهند الشرقية ، أما الأسبان فكان جل همهم كشف أراضى جديدة ولذا سافر كثير من بحارتهم فى القرن السادس عشر من غرب امريكا الى المحيط الهادى الجنوبى وكانت نتيجة ذلك كشف عدة جزائر منها جزائر مركويزا ونيوهبريده التى وصفت بأنها جزء من القارة الجنوبية ومن هؤلاء دى كويروس De Quiros وتورز Torres فى سنة ١٦٠٥ سافرا للبحث

عن القارة الجنوبية وبعد أن مرا بجزائر نيوهبريدة سميا أكبر جزرها « استراليا الروح المقدسة » وبذا استعملت كلمة استراليا لأول مرة ثم غادر دى كويروس رميله وعاد إلى مكسكو . أما توريز فأبحر غربا وعبر المضيق المسمى باسمه والذى يفصل بين غانة الجديدة واستراليا ولكن الأسبان أبقوا الأمر سرا حتى سنة ١٧٩٦ .

وفى أثناء ذلك طرد الهولانديون البرتقاليين من جزائر التوابل وجزائر الهند الشرقية الأخرى ثم أخذوا يبحثون عن القارة الجنوبية . وبين سنة ١٦٠٦ و ١٦٣٠ رست سفن هولندية على السواحل الشمالية والجنوبية والغربية من هذه القارة كما يستدل على ذلك من الأسماء الهولندية التى ما زالت باقية بها مثل رأس ليون وخليج كربنتاريا .

وكان أكبر الكاشفين الهولنديين أبل طمسن فلقد ارسل فى سنة ١٩٤٠ من بتافيا فى جاوه الى القارة الجنوبية فابحر عبر المحيط الهندى إلى جزائر موريشس ثم قفل راجعا صوب الجنوب فلم يصل إلى إستراليا ولكنه وصل الى جزيرة طسمانيا ومنها سافر إلى الشرق حتى وصل الى الجزيرة الجنوبية من نيوزيلند ومن ثم عاد الى بتافيا . وفى سنة ١٦١٤ سافر طمسن مرة ثانية ولكنه لم يكشف غير الشاطىء الشمالى ، ولم يتسن له عبر مضيق ترز الى الشرق وبذلك انتهى كشف الهولنديين لاستراليا. ووقفت جميع أعمال الكشف مدة طويلة ولم يستطع أحد كشف ما غمض من هذه القارة حتى أخذ أحد لصوص البحر المدعو دمبير Dampier الأمر على عاتقه : فى النصف الأخير من القرن السابع عشر هاجم البحارة الانجليز

شواطىء أمريكا الأسبانية وبخاصة الشواطىء الغربية وقد اشترك دمبير فى هـذه الحملات . وكان أهم رحلاته إلى الشاطىء الغربى لاستراليا عام ١٦٨٨ ، ولم يقتنع بكشف الشاطىء بل جعل جل عمه استكشاف الأراضى الداخلة ، وكتب وصفا عن السكان والغلات . ولقد عاد إلى انجلتره ونشر وصفه فأثار بذلك همة أهلها فأعدت له سفينة أخرى وكلف السفر مرة ثانية فـكان حول جنوب افريقية ومنها إلى خليج شارك فى الشاطىء الغربى لاستراليا ، وبعد أن ساح آلاف الأميـال ووجد الأرض جرداء رجع الى جزيرة تيمور (بالهند الشرقية) للحصول على المئونة فى ثم سار حول الشاطىء الشمالى من غانة الجديدة فاحصا الساحل فحصا جيدا ثم عاد إلى بتافيا . ولتدخل الانجليز من ذلك عدة سنوات لايشتركون فى أمور الـكشف فى البحار الجنوبية .

وقد اتخذ الخطوة التالية لـكشف الغامض من إستراليا الـكابتن كوك المشهور الذى سنتناول سفراته فيما يلى :

الفصل الخامس والعشرون

الكابتن كوك (Captain Cook)

كان الغرض من الاستكشافات قبل القرن الثامن عشر زيادة الثروة ورواج التجارة فصار ذلك الغرض فى القرن الثامن عشر حب البحث وراء الحقائق العلمية .

وفى أوائل القرن الثامن عشر كان أغلب بقاع الدنيا وسواحلها معروفا بالإجمال لجميع الناس تقريباً ولم يبق إلا السعى وراء ثلاثة أمور :

(ا) استكشاف سواحل آسيا الشمالية الشرقية .
(ب) استكشاف سواحل أمريكا الشمالية الغربية .
(جـ) إثبات وجود القارة التى قال بها بطليموس أو عدم وجودها

وقد أتم الكابتن كوك أمرين من هذه الثلاثة :

السفرة الأولى

غادر الكابتن كوك نهر التمز عام ١٧٦٨ بقصد الذهاب إلى نصف الكرة الجنوبى ليدون ملاحظاته على مرور الزهرة أمام قرص الشمس وكان ينتظر وقوع ذلك عام ١٧٦٩ ويمكن مشاهدته فى نصف الكرة المذكور فمر بمديره وريوده زهناريو وسار حول رأس هرن ثم وصل إلى جزائر سوسيتى .

وبعد أن رصد مروز الزهرة استكشف عدة جزر أطلق عليها جزائر

سنوسيتى ثم سار نحو الجنوبى واستكشف نيوزيلند وبرهن أنها ليست جزء من قارة جنوبية واستولى عليها باسم جورج الثالث ملك الانجليز .

وسمى المضيق بين الجزيرتين الشمالية والجنوبية مضيق كوك ثم سار نحو الغرب ورسا على استراليا ونزل ببقعة خصبة تسمى خليج بوتنى ومن ثم استكشف جميع الساحل الشرقى واستولى عليه وسماه نيوسوث ويلز ثم قصد غانة الجديدة مخترقا مضيق تورز ثم وصل إلى بتافيا فرأس عشم الخير ومنها إلى انجلتره سنة ١٧٧١ و بذا أتم سفرته الأولى حول الدنيا وتحقق من أن نيوزيلند واستراليا ليستا جزءاً من أية قارة جنوبية .

السفرة الثانية

كان غرضه من هذه السفرة المسير حول الدنيا فى الأقاليم الجنوبية الواقعة فى أقصى خطوط العرض وخوض غمار المحيط الهادى والتوغل فى بقاعه المختلفة التى لم يطرقها أحد قبله للتحقق من وجود قارة جنوبية أو من عدم وجودها فغادر انجلتره عام ١٧٧٢ ثم سار متجها نحو الجنوب ولكن الثلوج اعترضته فسار حول تلك الثلوج ثم عاد إلى نيوزيلند ثم طاف فى المحط الهادى واستكشف عدة جزائر أهمها هبريدة الجديدة وكلودنيا الجديدة ونرملك ثم سار من نيوزيلند صوب الشرق إلى مضيق مجلان ثم سار نحو الجنوب متجنبا الثلوج واستكشف ساحلا مرتفعا سماه ثيول وكانت أقصى أرض فى الجنوب استكشفت إذ ذاك . ولقد استكشف المحيط الجنوبى استكشافا دقيقاً وجال فى جميع بقاعة ما بين ٩° ، ٧١° جنوبا

وقطع ١٢٠٧٥٠ كيلو مترا وبرهن على عدم وجود قارة جنوبية ثم عاد الى انجلتره .

السفرة الثالثة

كان الغرض من هذه السفرة استكشاف السواحل الشمالية الغربية من أمريكا الى أقصى ما وصل اليه دريك شمالا والبحث عن طريق موصل من المحيط الهادى الى المحيط الأطلسى وللبت فى أمر ارتباط أمريكا وأسيا بالضبط فابتدأ كوك عام ١٧٧٦ وسار إلى بلاد الرأس ففان ديمن انلند فنيوزيلند ووصل إلى جزائر سوسيتى واستكشف جزائر سندوتش ووصل إلى ساحل أمريكا عند خط عرض ٣١° ٤٤ شمالا واستكشف الساحل واستولى عليه وسمى أقصى رأس فى شمال أمريكا الغربى برنس اف ويلز ثم حقق المسافة بين القارتين بالضبط وعبر مضيق برنج ثانياً إلى الشرق ووصل إلى خط عرض ٤١° ٧٠ شمالا ولما اعترضته الثلوج عاد فى طريقه إلى جزائر سندوتش حيث قتل عام ١٧٧٩ .

نتائج سفرات كوك

لقد أثبت كوك عدم وجود قارة جنوبية وأوضح كذلك استحالة العبور بطريق شمالى بين المحيط الهادى الأطلسى ، وصحح مواضع من الجزائر التى كانت استكشفت من قبل وعين اتجاهات التيارات وقوتها ومواقيت المد والجزر وأيد قرب أسيا من أمريكا . وأوضح العلاقات التى بين سكان

جزائر المحيط الهادي فى العصبية واللغة ،وكذلك بين سكان ألسكا وسيبريا الشرقية من جهة وسكان جرينلند والأسكيمو من جهة أخرى وأضاف ١٣٠٠ نوع جديد من النبات على الأنواع التى كانت معروفة ، و بين طرقاً مفيدة لحفظ حياة الملاحين وصحتهم أثناء السفرات الطويلة

الفصل السادس والعشرون

تتمة البحث فى كشف أستراليا

باس وفلندز (Bass and Flinders) وسترت (Sturt) وستوارت Stuart وأير Eyre و برك Burke وولز Wills .

كلف ماثيوفلندز عام ١٧٩٨ هو و باس أن يبرهنا قطعيا على أن فان ديمن لند جزيرة وذلك بالسير حولها فقاما بما كلفا به ثم سار فلندز سنة ١٨٠١ لاستكشاف سواحل أستراليا استكشافاً دقيقاً فسار شرقاً حول شواطئها من رأس ليون واستكشف الجزائر والفجوات التى أهمها خليجا سبنسر وسنت فنسنت

وكذلك استكشف پورت فلب استكشافا دقيقاً ووصل الى پورت جكسن واستكشف كذلك الحاجز المرجانى العظيم وسواحـــــل خليج

كر بنتاريا والجزر التى به وقام بسياحة تامة حول أستراليا واستكشف سواحلها بدقة .

ومن الأبطال الذين ترددوا على أستراليا وجابوا جهاتها وكشفوا سر ما غمض منها وعرفوا قابليتها للاستعمار « لوسون » وهو أول من اجتاز جبال بلو عام ١٨١٣ . ومنهم القائد ستيرت (Sturt) وقد تبع مجرى نهرى مكوارى ودارلنج عام ١٨٢٨ كما سار فى نهرى مرى حتى بحيرة الكسندرينا .

وكشف أير Eyre عام ١٨٤٠ البحيرات الملحة الواقعة شمال خليج سبنسر . ومن أشهرهم أيضا ستوارت (Stuart) وقد حاول مراراً أن يخترق القارة من الجنوب إلى الشمال إلى أن تم له ذلك عام ١٨٦٢ ومد خط تلغرافى عام ١٨٧٢ فى الطريق التى سلكها ستوارت . وعبر برك (Burke) وولز (Wells) القارة من ملبورن إلى خليج كر بنتاريا غير أن المنية أدركتهما فى الطريق عند عودتهما .

استكشاف الأقاليم القطبية

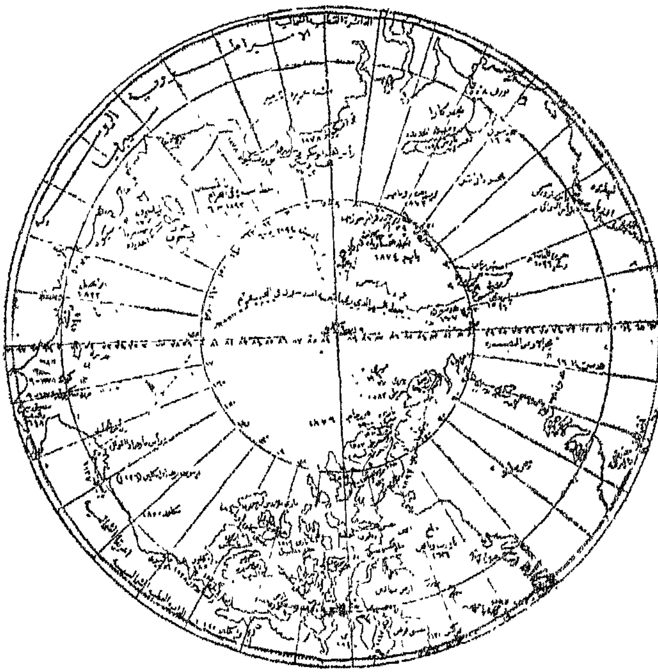
(١) أقاليم المحيط المتجمد الشمالى

كان استكشاف الأقاليم القطبية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وقد أفضى البحث عن الطريق الشمالى الغربى إلى كثير من الاستكشافات بالقرب من الدائرة القطبية الشمالية ودعا إلى استكشاف القطب الشمالى. وقد قامت بعثتان عام ١٨١٨ إحداهما تحت قيادة رُس Ross والأخرى تحت رياسة پرى لاستكشاف طريق شمالى غربى والوصول إلى القطب الشمالى فزادت بأبحاثهما المعلومات العلمية التى كانت معروفة من قبل وإن كانا لم يصلا إلى الغرض المقصود. ثم فى سنة ١٨٢٠ أرسلت بعثتان أخريان إحداهما فى البر تحت رياسة فرانكلين والأخرى فى البحر تحت قيادة پرى فاكتشف پرى الأرخبيل المسمى باسمه ووصل إلى خط طول ١١٤° غربا فاعترضت سبيله الثلوج فى المضيق الواقع شمال بَنكس لندو هذه الأرض ولولا هاتان العقبتان لوجد ضالته المنشودة واستكشف طريقا شماليا غربيا.

أما فرانكلين فكان قصده استكشاف سواحل أمريكا الشمالية ولم يكن معروفا منها سوى جهتين وهما مصبا مكنزى وكپرمين. فسار فى نهر كپرمين واستكشف أغلب بقاع الساحل شرق مصبه. ثم أنه سار سنة ١٨٢٥ إلى مصب نهر مكنزى وأرسل أحد أتباعه لاستكشاف الساحل بين نهرى مكنزى وكپرمين.

ورأس السيرجون رُس عام ١٨٢٩ حملة فمر بخليج ريجنت من مضيق

لنكستر واخترق ابن أخيه جون رُس المضيق المسمى باسمه واستكشف القطب المغناطيسي الشمالى ومكث السير جون رس خمس سنين بالدائرة القطبية الشمالية . وسار السير جون فرانكلين عام ١٨٤٥ فى حملة أخرى ولكنه هلك هو ومن معه وأرسلت أربعون بعثة ما بين سنتى ١٨٤٨ وعام ١٨٥٧ للبحث عنه وقد نجم عن إرسال كثير من الاستكشافات الجديدة منها اختراق الطريق الشمالى الغربى عام ١٨٥٠ واستكشاف الأراضي الواقعة فى الغرب وسواحل جرينلند فى الشرق .



كشف القطب الشمالى

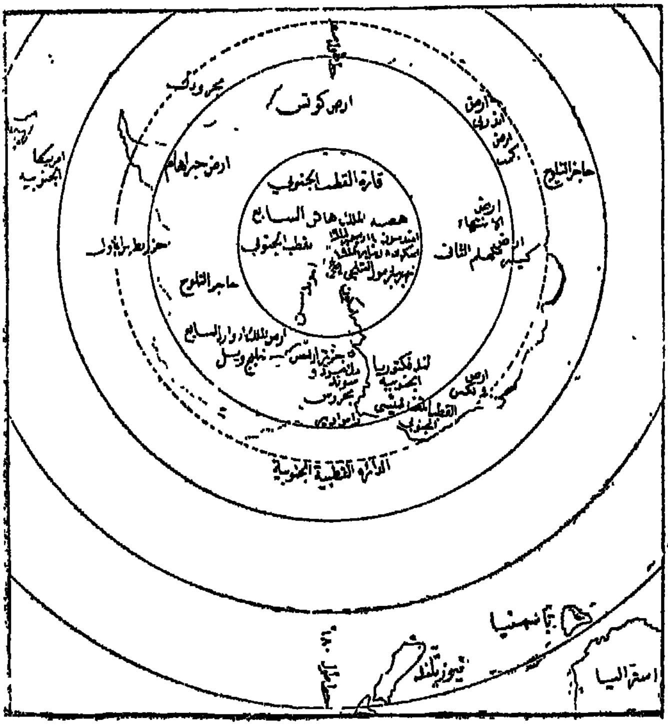
واستكشفت بعثة نمساوية عام ١٨٧٤ أعظم الأراضى المعروفة ارتفاعا وهى فرنسس جوسف لند . وعبر الضابط الأمريكى پيرى عام ١٨٩٢ شمال جزيرة جرينلند عند خط عرض ٣٧َ ٨١° شمالا وتحقق أن جرينلند جزيره ووصل إلى خط عرض ٥٠َ ٨٣° شمال جرينلد عام ١٨٩٤ وإلى خط عرض ١٧ ٨٤ شمالا عام ١٩٠٢ .

ولما أيقن نيونسين النرويجى أن هناك تيارا مستمراً من الثلوج فى المحيط المتجمد الشمالى من ساحل سيبريا الشمالى الشرقى أشار بصنع سفينة تقاوم ضغط الثلوج وعزم على أن يجعل الثلوج تحمله إلى القطب الشمالى إلى أبعد مسافة يمكن حمله إليها حتى يصل إلى أقرب نقطة من القطب .

ولما وجد أن الثلوج لم تقربه كثيراً من القطب ترك سفينته وسار حتى وصل إلى عرض ١٤َ ٨٦° بحيث لم يبق بينه وبين القطب سوى ٤٢٠ كيلو متر ووصل الدوق أبروزى الايطالى ما بين عامى ١٩٠٣، ١٩٠٦ إلى خط عرض ٣٣َ ٨٦° شمالا وما بين سنتى ١٩٠٣ ، ١٩٠٦ اهتدى أموندسن النرويجى الذى وصل إلى القطب الجنوبى فيما بعد إلى طريق شمالى غربى وفى سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ وصل الضابط بيرى إلى خط عرض ٦َ ٨٧° شمالا وفى السادس من إبريل سنة ١٩٠٩ وصل إلى القطب الشمالى .

(١) الأقاليم القطبية الجنوبية

كان الكابتن كوك أول من اجتاز الدائرة القطبية الجنوبية وذلك في أثناء بحثه عن قارة جنوبية ووصل إلى الدرجة ١٠َ ٧١° جنوبا واستنتج مما شاهده أنه لو كانت هناك قارة فلابد أن تكون حول القطب الجنوبي وعلى ذلك فالوصول إليها عسير لتراكم الثلوج وقد مر في سفره بسوث چورچيا ، وبأرخبيل جزر سندوتش ، ومع ذلك فتاريخ الاستكشافات القطبية الجنوبية يبتدىء من العصور الحديثة فقط فاستكشف وليم سمث جزر سوث شتلند عام ١٨١٩ واستكشف الكابتن پادل المشتغل بصيد العجول البحرية جزائر أوركني الجنوبية عام ١٨٢١ وأرسل اسكندر الأول قيصر روسيا عام ١٨١٩ بعثه تحت قيادة بلنجسهاوزن لتتميم اعمال كوك فوصل إلى سوث چورچيا واستكشف ساحلها الجنوبي ، ثم دخل الدائرة القطبية الجنوبية ووصلت قدمه بعض الأقاليم القطبية الجنوبية التي لم يزرها أحد قبله فاستكشف أقصى إقليم معروف في الجنوب وهو جزيرة بطرس الأول وأول إقليم معروف داخل الدائرة القطبية الجنوبية ومن ثمّ استكشف أرض اسكندر الأول فكانت سفرته تكملة لسفرة كوك. وفي عام ١٨٢٢ وصل جيمس ودل بينما كان يبحث عن مصايد عجول البحر إلى مسافة ٣٤٥ كيلو مترا أقرب إلى القطب مما وصل إليه كوك فكان خط العرض الذي وصل إليه هو ١٥َ ٧٤° جنوبا أي على مسافة ١٥٢٣ كيلو مترا من القطب و يعرف البحر الذي هناك ببحر ودل .



كشف القطب الجنوبي

وقد اشتغلت بالاستكشافات شركة إندربى واخوته بلندن حتى أنها أرسلت جون بسكو عام ١٨٣٠ وكلفته أن يجمع بين الاستكشافات وعجول البحر فعثر على الأرض التى تسمى الآن اندربى لند واستكشف جزيرة بسكو وجريهم لند . وكانت أهم السفرات إلى الأقطار الجنوبية إلى هذا الوقت سفرة القائد جيمس رُس عام ١٨٤٠ وكان هو أول من اخترق الثلوج ومخرت سفينته فى بحر رأس واستكشف فكتوريا لند وهى أول أرض استكشفت مدة حكم الملكة فكتوريا . ثم استكشف كثيرا من الجبال والقمم وسماها بأسماء خاصة بها ومنها بركانا إيربس وترور . ووصل إلى خط عرض ٩َ ٧٨° جنوبا أى ٥٤َ ٣° أبعد مما وصل إليه ودل واستكشف القطب المغناطيسى الجنوبى . وارسل السير جورج ، نيونز الذى زار فكتوريا لند عام ١٨٩٤ إلى الأقاليم القطبية الجنوبية عام ١٨٩٨ ووصل إلى خط عرض ٥٠َ ٧٨° جنوبا وذلك أبعد مما وصل إليه رس وعلى مسافة ١٠٧٩ كيلو مترا من القطب وكان هو ورجاله أول من قضى فصل الشتاء فى القارة المتجمدة الجنوبية .

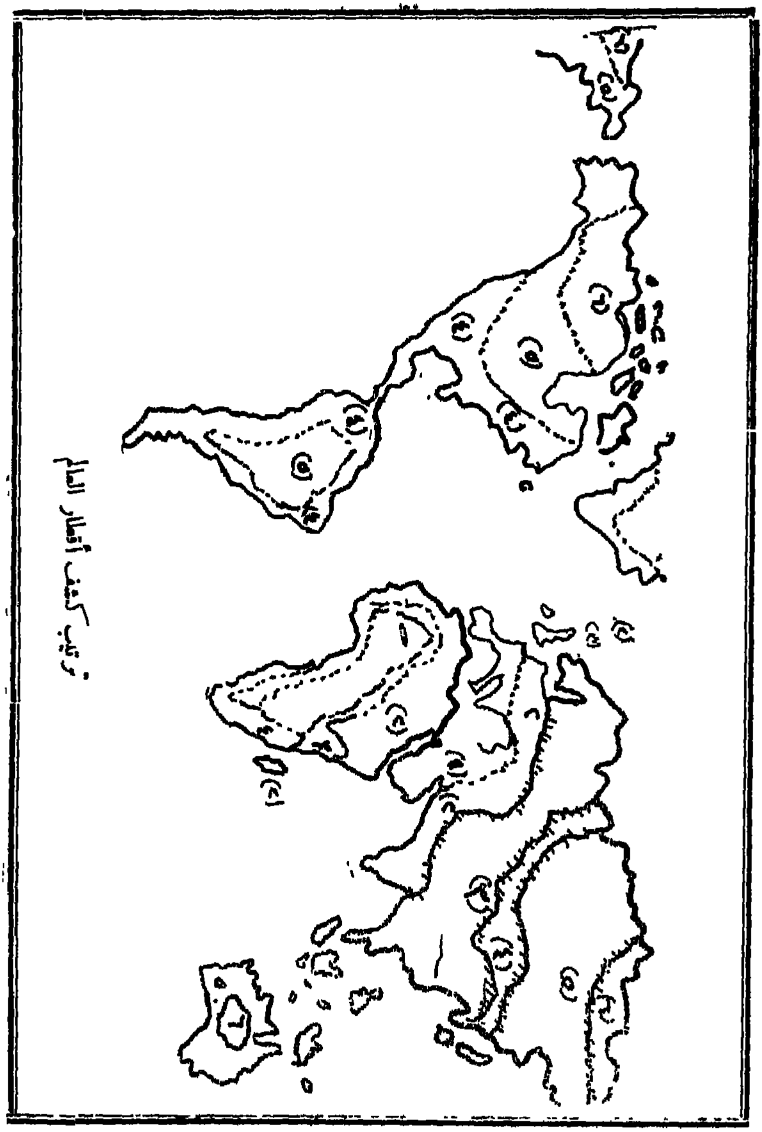
واستكشف الكابتن سكت عام ١٩٠١ أرض ادوارد السابع ووصل إلى خط عرض ١٧َ ٨٢° جنوبا أى أنه كان على بعد ٧٤٥ كيلو مترا من القطب . ثم ظهر له أن فكتوريا لند عبارة عن هضبة متسعة . واستكشفت بعثة ألمانية عام ١٩٠١ أرض كيسر فيهلم الثانى . وأقام الضابط شاكلتن العلم البريطانى عام ١٩٠٨ فى خط عرض ٢٣َ ٨٨° جنوبا . أى على بعد

١٠٠ كيلو متر من القطب الجنوبي . واستكشف شاكلتن سلسلة جبال عظيمة ممتدة في الشمال الشرقي وأربع سلاسل أخرى وصعد على بركان إربس واستكشف فوهاته وعين موضع القطب المغناطيسي الجنوبي عند خط ٢٥َ ٧٢° جنوبا شرقا وخط طول ١٦َ ١٥٥° واستكشف ٧٢ كيلو مترا من أرض فكتوريا لند ودونها في الخرائط . وسافر الكابتن سكت عام ١٩١٠ قاصدا القطب الجنوبي ، و بعد أن ابتدأ بزمن يسير بادر أموندسن النرويجي إلى القطب الجنوبي ليكون له شرف الأسبقية إليه فنجح ووصل إليه في الرابع عشر من شهر ديسمبر عام ١٩١١ وسمى الهضبة باسم ملكه أي هضبة هاكن السابع ، ووصل سكت وأربعة من رجاله إلى القطب الجنوبي في الثامن عشر من ديسمبر عام ١٩١٢ ولكنهم هلكوا في الطريق عند عودتهم .

هذا وأما من جهة التركيب الطبيعي للأقاليم الجنوبية فهي على عكس الأقاليم القطبية الشمالية . و بالاجمال فان القطب الشمالي واقع في بحر عميق وأما القطب الجنوبي فعلى هضبة عالية ، ولما وصل پيري إلى القطب الشمالي وجده بحرا واسعا مترامي الأطراف ، وقد حاول قياس عمقه فذهب المسبار إلى ٩٠٠٠ قدم دون أن يهتدي إلى قاعه ، والحال على عكس ذلك بالضبط في القطب الجنوبي فهناك قارة شاسعة يتوسطها القطب نفسه وترتفع القارة هناك بانحدار عند ساحل البحر كما هو الحال في جميع القارات الأخرى .

وهذا الساحل عبارة عن جرف من الثلج والطريق الموصل من ذلك الجرف الثلجي إلى القطب نفسه يتخلله هضبة عالية بها سلاسل جبال

ممتدة إلى مئات من الأميال . ومن أهم الأقطار التى تتهدد المستكشفين هناك الأنهار الثلجية التى كثيرا ما تنزلق نحو البحر فاغرة أفواهها العظيمة . و بالنسبة لهذه الفوارق فى المميزات الطبيعية نجد أن بالقطب الشمالى مجالا شاسعا للحياة فى حين أنه لا يوجد بالقطب الجنوبى شىء حى بعيد عن البحر . فما أجدر بأن يسمى إقليم الفناء وما أحق الآخر بأن يلقب بإقليم الحياة .



ترتيب كشف أقطار العالم

الفهرس